خناثة بنونة

النار والاختيار





النار والاختيار

خناثة بنونة

النار والاختيار

مجموعة قصصية

سلسلة الجهاد الاكبـر
رقـم 5

إلى الغد :

ـــــفتح .....

وإليك



المقدمة

(تمنيت لو اننى لم انفتح على غير عالم الاعماق ، حيث كان وجودى مشروعا مشكوكا فيه .)

بهذا التمزق تبتدىء خناثة فقراتها الاولى من قصة النار والاختيار فتطل بنا على كيانها الازلى الذى لم ينبثق بعد فى هذا العالم الذى نحياه ، تهرب بنا من الوجود المظلم الذى صنعه 5 يونيه الى مشروع وجود لم ينكشف بعد عن شكله ، ومن يدرى فربما لو عادت الحياة طريقها لتحــول مشارع الوجود الى كيان مندفع لا كبت فيه ولا هزيمة ؟

ولكن الواقع يصرخ .

كل شىء فى هذا العالم الذى نحن منه يــؤكد اننا منهزمون ، هل هروبنا الى ما قبل التاريخ يجعلنا ننسى

حقيقة المأساة التى اصابت الامة العربية فى فلسطين ؟ وتلك هى ماساة خناثة فى هذه المجموعة الشيقة .

لقد كانت الكاتبة فيها ملتزمة والكلمة عندها ليست الا اداة واداة ضيقة لتسجيل انفعالاتها وتاثراتها ، لقد كانت المأساة من الشدة بحيث لم تفكر الكاتبة ان تخلق بطلة غير موجودة ، لقد القت بشخصيتها هى شخصيتها القوية الثائرة المنفعلة البائسة فى الميدان ، لانها من هذه الامة التى انهزمت. هل تستطيع أن تلقى بمسؤولياتها ولو فى عالم القصة على ابطال غير موجودين ؟ كلا ، انها هى المسؤولة ، ولذلك فهى الجديرة بان تتحمل آثار الهزيمة . ان تعيش مع المشردين والمشردات مع الذين يلاقون عناء الاحتلال الصهيونى ، ريثما تستطيع ان تكون مع البرناوى وأبطال بركة القمر . على ان خناثة تعترف بانها ليست وحدها المسؤولة ، وانما هى واحدة من الكل ، العرب كلهم مسؤولون اولا لانهم صنعوا الهزيمة ، وثانيا لانهم لم ياخذوا الطريق التى تمسح عنهم العار .

انهم ما يزالون يتنعمون ، ياكلون ويشبعون ، يرقصون ويمرحون كان شيئا لم يقع ، كان الصهيونيين ليسوا فى بيت المقدس .

« فكيف يملك بعضنا ان يتنعم الى هـــذا الحد كان زلزالا لم يقع»

انه لا يحق للعربى ان يحيا حياة طبيعية ما دام لـم يلق عنه اثقال الهزيمة ما دام لم ينبذ الماضى بما فيه ،

وينهض ليأخذ طريقه الواعية العاملة الى النصر .

كل هؤلاء الذين نراهم ، من الرئيس الكبير الى بائع النعنع يجب أن يذكروا دائما ان زلزالا قد وقع ، يجب ان لا يرضوا بحياتهم العادية واعمالهم الرتيبة ، ان يثوروا على واقعهم ، على مجتمعهم الذى لم يعرف كيف يقسر النصر من براثن الاعداء ، ان بائع النعنع ما دام لـــم يثر على واقعه سيبقى دائما بائع نعنع .

اما الرئيس الكبير الذى يحاول ان يبرر حياته ، باننا نحن هنا فى المغرب غير مسؤولين ، لاننا تحركنـا لننجد اخواننا ولكنهم لم يتيحوا لنا فرصة الوصول ، لانهم ارادوا ان يفوزوا بالفضل وحدهم ، فانه يعطى الكاتبة فرصة لتخرج من الحانها كلمة تشتمل على كل اسباب الهزيمة بحيث لو ان محللا اجتماعيا اخذ الموضوع من اطرافه لما وصل لغير هذه الحقيقة :

« نحن جميعا ... كنا جميعا نتلاعب على الدور ليلا يؤديه اى احد ، فيصول الخصم ليضرب ضربته »

انها لمؤامرة حقا ؟ الم يكن من واجبنا ان نجتمع ونخطط ونستعد ، ثم يقوم كل واحد منا بالدور الذى اعطيه ، ولا نكتفى بالخطب العنترية والتهديدات الوهمية ثم نحتال ليلا نعمل ، وبعد ما تقع الهزيمة يقبل بعضنا على بعض نتلاوم ، كلا اننا جميعا مسؤولون عن الهزيمة ، نعم عن الهزيمة التى يجب ان نسميها باسمها ولا نغرقها فى بحر من الاوهام التى

تغلط كبرياءنا ، ان اعطاء المدلولات كلماتها الحق ضرورى للشعور بواقعنا ، ومواجهة الرؤساء بالحقيقة اولى من التمادى فى المداراة والمجاملة :

(لان كل هاته الاساليب المتعاهد عليها ـ اساليب المجاملة والمداراة هى التى ولدت الكلمة غير الحقيقية التى خلقت الزلزال) .

نعم انه زلزال اصاب الوطن العربى ، فيجب ان يكون لنا منه فى اعماقنا زلزال نفسانى لا نطمئن معه لشىء الا النضال حتى النصر . ان كياننا زائف ما دمنـا فى حياة الهزيمة .

وخناثة التى تجسم تلقائيا هذا الزلزال تجيب الذى يريد منها الصبر : (ولكنى لا استطيع ان اكون بغير ما يحقق النصر ؟) فالقضية قضية وجود ، كينونة ذاتية ، للعربى ، لكل عربى وللامة العربية ، اما النصر واما العدم .

وحينما يذكرها والدها الحنون عليها بالقدر تثور :

(ابدا لا اسمح ان تقتل لى الاهى لقـد كلفنى البحث عنه الكثير وما ارتبطت به الا لان ارادته لا تخدر ولا تخدم الدمار)

انه ايمان واع بالاله الحق ، الاله الذى لا يـريد من عباده ان يخدروا عقولهم او يعملوا لما يجلب الدمار ، لقد اعطاهم الحرية وهداهم النجدين ؟ فليتحملوا مسؤوليتهم اذن ؟ .

ما اقوى هذه البطلة التى تعيش ماساتها ، ولكنها لا تتردد عن اقرار الحق فى نصابه ، انها لا تظلم احدا ، لا تجرد المسؤول من جريمته ، ولا تلقيها على كاهل الرب الذى لا يظلم احدا ، وبهذا ترتفع الكاتبة الى درجة المصلحة الرائدة .

لقد مضى عصر القول ، والهروب من المسؤولية ، والاعتذار المزيف واصبح كل شيء يجب ان يؤول بالفعل ، نحن نعيش فى عصر لا مكان فيه لمن لا يترجم القول الى العمل : «الثقافة فعل ، والفكر فعل ، والكلمة جهاد ، ذلك لمن لا يريد ان يسحقه عصره »

ومن هنا تبدا البطلة المصلحة تبحث عن طريق الخلاص، ان الالــم يجب ان لا يطغى على افكارنا ، وان لا يغرقنا فى حيرة تفقدنا كل قدرة على التامل والبحث عما ينجينا ، بل يجب ان ننطلق من الالم نفسه ، يجب ان يكون حديثنا عنه لا شكوى وانينا ولكن جهاد ونية ، عزم وتصميم ، ان تثقيف امتنا بمعطيات النكبة فعل ، وفكرنا فى وسائل العمل للخلاص فعل ، وكما نعيش المأساة فى جانبها السلبى يجب ان نحياها من جانبها الايجابى . لندع أساليب الماضى ، فالامة واحدة يجب ان تسير كلها للعمل ، واذا كان للثقافة والكلمة دور فى توجيهها ، فلا ينبغى ان ننحدر بذلك الى استعلاء المثقفين واعتبارهم الشعب تحت وصايتهم (فالثقافة غير طبقة ، والكلمة شرف ، والوصية من فعل القاصرين ، والمال وحده لا يشترى بعض الناس) .

ثورة فى التفكير وفى علاقاتنا مع الناس قبل الثورة فى العمل .

فى آتون المأساة يجب ان نصهر انفسنا ونخلقها خلقا جديدا اذا كنا نريد ان نقوم بدور المنقذ ، ليس لنا الا سبيلان: سبيل الماضى المغرق فى الثرثرة واللا مسؤولية ، او سبيل الغد المشرق غد الجهاد المقدس والعمل المجدى (النار فى الاعماق ومع ذلك يجب آن نختار)

والمسألة ليست خاصة بفرد او جماعة دون غيرها ، ولكنها مسألة كل واحد منا ، كلنا فدائى يدبر شأنه ، فى الجبهة او فى منزله بفلسطين او بالمغرب ، مأساة واحدة ، ومسؤولية واحدة . (اننا جميعا بموضوع ، الكيان المنتظر الذى علينا ان نخلقه والذى يبتدىء منه كل شىء)

اما خناثة فقد اختارت (ان التدريس يمنح لشعورى بالمسؤولية نوعا من الاطمئنان ، فعلى الكراسى بواكر طرية يجب انقاذها من التيه الذى يعانى منه انساننا العربى .

« لقد اخترت طريق جهـــادى ، لأن ظرفى التاريخى والنفسى يتطلب هذا الجهاد لاؤكد آن مرحلة البدء حانت ، وان من لم يبدأ عليه آن يموت . »

والحق ان خناثة لا تفرض اكثر من الوعى بالمسؤولية، من الرفض للحالة التى يعيشها العربى ، وبعد ذلـــك كل شىء يخدم القضية ، وكل قول وكل عمل جهاد . والتدريس جبهة من جبهات المعركة لانه ينقذ الناشئة من التيه وينشئها

واعية بمسؤوليتها . (لان الحياة لا تكتسب طاقتها الا من الرفض الواعي) .

أما عناصر النصر فهي « السلاح ، والتعبئة والتضامن والدم فالموت من أجل محو العار » .

تلك هي قصة النـــار والاختيار التي افرغت فيها الاستاذة خناثة بنونة روحها وآلامها وآمالها ، وهي تمثل لونا من ادب المقاومة فريدا من نوعه في الادب العربي .

وان أسلوب خناثة في قصتها الــوطنية والاجتماعية ليسمو أحيانا الى التذكير باسلوب دستوفسكي واندري جيد، ويمكنني ان أؤكد انني لم أقرأ لكاتبة عربية ما يضاهي قصص خناثة قوة وايمانا .

والذين كتبوا عن مجموعة خناثة الاولى (ليسقط الصمت) لم يروا فيها قصصا بالمعنى الصحيح للكلمة ، ولعلهم يفهمون القصة على شكل لا ندريه نحن ، ولم تتح لنا قراءته لكاتب من كتاب الارض الذين قرأنا لهم ، او لعلهم استكبروا انتكون فتاة مغربية أقوى من كثير من ادعياء القصة في بلادنا .

ان لخناثة أسلوبا في تسلسل افكارها لا تفهم قصصها الا بمسايرتها فيه فكـريا ، فالمقدمات تفضي الى النتائــج والوسائل تؤدي الى الغـايات ، والمجموع هو الذي يكـون عقدة القصة عندها

ولناخذ النار والاختيار مثـــلا ، المأساة هي الحال ، والاحداث مظاهر آلامها في الوقت الذي هي مقدمات لوقوعها،

ومنطق الواقع يفرض وسائل العمل ، اما النتائج فهى ضرورة النضال لمحو العار وخلق مجتمع عربى جديد ، وكل حرف او حادث فى القصة ينطق بهذا ، اى يروى حـالة ماساوية ويحدث عن مجتمع حائر ويفرض الاختيار .

لقد استطاعت خناثة ان تسجل كل ما يشعر به المغربى من تضامن مع أخيه العربى ، وذلك ما يبين ان مأساة العرب فى فلسطين مأساة كل عربى فى الشرق او الغرب ، ومسؤولية الانقاذ على الجميع .

الرباط : علال الفاسى

نـــداء الـــدم

الصمت: ولن يعود .. فمن هنا تتكلم الاشياء .. كل الحشرجات المجروحـــة فى حلـق المطرودين ترأر .. وأين لى بجناحين خارقين .. أنخـــر بهما السور والاسلاك والمسافات فى رمشة .. فأتدفق كهدير جبار يعانق القرار الجبـار : المعركـة .. معــركتى ومعركة كل المدافع والمدامع والأرض والسماء والصدق .. هنا ، والى كل شبر يشغله اى عربى .

وقرر :

لن اعود الى البيت .. فالفرحة فيه وفى كل قلب وجميع الزوايا .. فلماذا اذن اعود ؟ : ان زوجتى الشابة التى قتلت فيها الظروف كل ابتهاج او امكانيات مسرة ، قد تحولت الى لبؤة شرهة تغمرها كلمباهج جيلها وماقبله ومابعده .. فعما

قريب .. غدا .. بل الآن .. سنكون بشرا .. هكذا قالت زوجتي وتقول .. سنصفع بهذا كل القوانين وجميع الجبناء الصلعاء التي تتحكم في العالم وتنتف منه الحقوق والعدل . وسنعود الى الارض ..

وغار قلبي في مسرة صلبة عريقة أبدية كأرض أسطورية الاحداث ، حقيقية العهد والانتساب .. تلكم ارضي. وكيف لا أتذكر ؟ : .. لقد أخرجوني منها ابن الثماني سنوات .. فلم يلتقط ذهني وقلبي منها غير الجراح وكل الصور الهلعة الغضبى لسكان قريتي وصوت أمي وهو يشهق وينادي :

ـ صبح ؟ . صبح ؟

وقبل ان يقطع صوتها الى كل الضجة الهادرة لبشر حكم عليهم أسياد العالم وثعالبه بأن يتقبلوا الطرد كقرار .. قبل ان يتلوى ذلك الصوت النائح بفجيعة جنس بأتمه . كنت اجري .. اسرع .. ولا ادري الى أين ..

ـ صبح صبح .. ياصبح ؟؟

واجبت بحشرجة طفل هلع :

ـ امي

فأطبقت كفاها على تلفي .. ولم اعد في المشهد . لقد انفصلت نهائيا عن أن اعي ما حولي .. فليس هناك غير الصوت البعيد القريب للارض الضائعة ينادي : صبح ؟ .

صبح !! .. وهل استطعت أن أكون كذلك ؟ : .. ألم

يسخروا منى ، هم ام القدر ، حينما وضعوا فوق قتامة حياتي شارة نور لا أملكه .. صبح !.. فأى الأصباح أنا مع سور القدس وأسلاك بيت صفافة وغربة موكب الانبياء بالخليل .. فعلى حلكة يوم بوطنى استيقظ وعيى عن شبه ادراك لاسمى .. فحاولت ان افهمه .. ان اجده فى الصورة الدامية الكالحة من حولى .. ان استخرج من اشراقته سببا يتطابق مع ما يحيطه ، ولكن الكفين كانتا تضغطان على معصمى وتسرعان بى لأن توصلانى الى شط حياة ..

وانتفض آنذاك .. من غور اعماقى .. تمرد بكر لم أعرف سببه لحينه .. فانتشلت يدى من قبضتها ووليت أجرى .. كنت لا اراديا .. اتحدى الطلقات التى كانت تلوح فى مسمعى صغيرة كطقطقات حجر .. فأخترقها وأخترق الموت دون ان يملأ نفسى ويجر خطاى الى العودة ، غير صوت سحيق بعيد آت من بدء افق السواحل : صبح ؟؟؟ ولكن صوتها ايضا بلغنى .. مسعورا بحرقة أم مهددة بان تثكل ولدها . هكذا يا امى اخافنى نداؤك . والصوت الآخر او صدى صوتك يجرنى . ودمعة حبيسة كانت فى حلقى ترفض ان تنحدر . ويداك فى النهاية تبلغان اذيالى . فأسقط على التربة وأمرغ شهقاتى بها واشد قدميك اليها ولا اتذكر كيف .. ثم اتبعك ، وكان الصدى ما يزال يزمجر فيطبق على الخطوات أمامى حتى لا أكاد أسير .. ولكنك أبدا لا تسمحين . أماه ؟ .. يا أمى .. ولم لا نعود ؟

ـ الرصاص يابني .. لقد غدر الكل بنـا

ـ والى أين سنذهب ؟

فأشارت الى الأمام بيدها ، وقالت بهلع :

ـ أسـرع

ولكن الصدى كان يلاحق .. صبح .. صبح .. صبح .. وكيف السبيل ؟ .. وهل ترى البقعة تذكر ؟ استجبت للنداء القهرى من الصدى الهادر وقلت لها :

ـ هناك من ينادى على

ـ ليس لنا من احد .. فأبوك هلك

فارتعدت أوصالى عن غضبة مجنونة وقلت بزمجرة .

ـ لن اذهب .. لعله ..

فانفجرت مآقيها عن دمعة لم تنسكب ، وقالت :

ـ اسرع يا حبيبى .. فلقد مات مع الآخرين .

والزمتنى الدمعة الحبيسة ان اذعن .. فجرتنى وقد لفها ارتباك كبير واخذت تجرى .. والصدى من خلفى يجرى .. والقرية المطاردة تجرى .. والعالم الحديث من وراء ذلك ، وأمى تستغيث :

ـ النجـدة

وكانت الدنيا قد بليت بالصمم .. والناس فى بلادى يتلمسون بالخوف والغدر والموت القوانين الدولية .. وقبضتها المتماسكة على معصمى تسترخى .. وصوت هالك يتمتم : لقد أصبت ، والصدى الخانق المتفجر من كل الزوايا والاركان

ما يفتأ يطبق على .. صبح ؟ .. واستسلامها فجأة لارتماء ..
وهمس حنون ملحاح يقول : انج انت . أمى .. ما ذا بك ؟
فيجيبنى التدفق القانى وتكون عيناى قد تعودتاه ، لكن دمها
هي بالذات شدهنى .. امى ؟ .. أمى ؟؟ .. ثم اغطس يدى
فى الدم والتربة وتنحل عقدة حلقى فأبكى .. ولكن الجيران،
خطفونى من الدم والدمعة والتربة والصدى .. وحاولوا من
بعد ، هم وتآمر العالم ، أن يغرسونى هنا ، فى البعيد ..
ولكن عروقى أبت الا جذورها .. هنالك : فى بقعة الدم
والتربة والدموع ، فيا أمى ؟ هل تسمعين الآن فرحة بدئنا ..
علم وجودنا فوق الهياكل والمبانى والمؤسسات ، والصوت
الكبير ينادى : الجهاد ، وانا وصوتك وصدى الابعاد والاجداد
ينادى : ياصبح ؟ ، وكم مرة ذهبت اليه استجيب : كنت
فدائيا فسدوا الحدود عنى ، كنت ثائرا فحصدت فوهات
البنادق والخيانة ثائرين غيرى ، كنت لاعنا ولم اقبل ابدا ان
اكون ملعونا مثلهم ، لأنه نداك : ذلك الذى زرعت به الآفاق
والمدى وما خلف السواحل قبل ان يسقط لسانك فى الموت .

وفى تلك اللحظة ، دوى صوت هادر من جهاز مذياع
يتحلق حوله كثيرون ، وقد تربعت فوق جباههم عزيمة من صمم
أخيرا على أن يمتلك معركته :

ـ (فيالق جيش التحرير فى المواجهة .. فلم يعد العالم
يحمى الشرذمة ، لأنه لا يمكن أن يؤبد لعنته ، فلقد استيقظ
النصف الشهم منه .. فالى الامام يا ابناء الارض التى هى لنا)

أماه ؛ وصوتك وصداه وجروح الأعماق التى ستلتئم
وكل السعادات المنتظرة : اتسمعين ؟

ـ (الله اكبــر .. فباسم مليون مليون دمعة .. ومجلدات
من النكبات . وبما يملأ الكون من الآهـــات ، سننتقــم ..
وسنطحن السلاحف التى لا تعيش الا بالركوع لبريق الدولار
.. الله أكبر .. الله أكبر .. الله فوق الاعتداء)

انها موسيقى الحرب الخالدة التى اشتعلت فى عروقنا
قبل ثمان عشرة سنة ولم تنطفىء .. اشعلها الرفض وصوتك
وأصوات ارضنا يا أماه .

ـ (استرد العرب مضيق تيران .. فطمسوا بالوحــل
خيشوم الثعبان وقرر الصوت الجبار الذى يسع كل اصواتنا
انها المعركة) .

لبيك ايها الصوت .. ياصوت الغد والتاريخ والخلود ..
يا أصواتنا كلنا .. يا قرارا بلا رجوع .. ولبيك يا أماه ..
لبيك يا فيافى واغراسا وحقولا وصدى وبركة دم : لبيــك
يا فلسطين فبعد ساعة .. بعد جزء منهــا سنهــزم المــوت
بالنصر .. ونعلن أصباح الحق الذى لا يمكن ان يموت .
من أرضنا .

يا ... يافا

أمي ..

حينما بذل صوتك جهده وقال لى : لسنا من هنا ، انفتح فى قلبى ما وددته : لقد كرهت ن أكون من هنا ، من الدرب الذى تعفر سطحه بكل الوحل . فمن أين نحن يا أماه ؟.

وتقلص صوتك بشيء لم أفهمه ، كما لم أفهم الى الآن منبع الظلم ومنطلقه :

ـ من يافا .

يافا .. وما تكون يافا هاته .. أفيها يكمن السر .. سر النكد الذى لم أنجح أبدا فى أن أجـد غيره بوجهـك والذى طالما حاولت أن أغرس فيه بهجتى البكر لأقتلع منه صرامته .

ورمقتنى ببصر تكمن فيه ضجة خيل الى أنها منتظرة ، ولم تتسلل من صمتك غير اشارة ، فانحدر بصرى فى امتداد

الأصبع وتوقف على الأسلاك :

ـ وأين هي ؟؟

هكذا الححت وانا اغرس تنبهي كله في الثقب واود لو أراها . فمال راسك كما اعتاد ان يميل حينما أنفلت من حصارك ، فيحدثني فم صديقة بان العالم يطفح بالنكبات . ولكنك أنت تريدين أنتنفي عني النكبات بالميلان المنهار للعنق الذي يحمل راسا يطحنه هدير ..

وضج عمقي عن تصميم : سوف أراها .. يافانا هاته .. فلعل فيها السر الذي تخفيني عنه ، حينما تمسك بي عـن كل الاصوات ، واتخذت من السلك نفسه وسيلة للمعرفة .. فيا ايتها الثقب أين يافا ؟؟ .. ان امي تنطقها بقداسة نكدة .. فكيف تكون ؟؟

حملقت وتمعنت .. فطلع بصري بكل شيء غير يافا · البنايات المتواطئة بصمت مفروض .. وتلك الصومعة البعيدة التي كان ارتفاعها وغربتها يشدانني الى نداء اصم لها .. وهدير قطار يمر اثر الحنين ، فيخيل الى انني لا بد ان اركبه .. وهاته السحنات الجامدة كسحنة امي ، والتي لا تمنحك نفسها الا لبرهة ثم تختفي ، وسالت نفسي : ترى اي خيط هائل يربطني بالصرامة فيها .. ان فيها ما احبه ، الا هذا .. فان سحنته تختلف، مع القبعة والبندقية وخطوات الاحتراس التي يبذرها امامنا ذيما وراء الاسلاك .. أسلاك ببيت صفافة . ولقد نبهتني أمي لان أحترس منه : حارس صهيوني ! وفي النبرة

التى بلغتنى من صنوتها تعلمت أن أكرهه .. خصوصا وأن أمى اذا خرجت فصدمت صورته وجهها ، فانها تـــرمقه شزرا وتسرع ، ولكننى لم أستطع ان اظفر بما هو اكثر .. لانك أنت .. حتى أنت يا أماه .. كنت تنتصبين عند حدودى حارسا يحمينى من كل الأخبار ، الى أن انفلت منك : لسنا من هنا . فدقت الزمجرة بين اضلعى ولم تستكن .. ان وراء صمتك وصمت الدرب وصمت الجيران خلف الاسلاك ما اجهله .. يجب أن أعلم .. حتى ولو تحديت حراستك وحارس الاسلاك فى الخلف : اصبحت أفتح الباب خلسة واضع يدى المدملجة فى خصرى وأميل على جدار الباب فى وقفة معتدة وأغرس بصرى الصغير الغاضب فى كل شىء أمامى .. حتى فيه وفى بندقيته ونظرته . وكان يسلينى كثيرا الا اخطف نظرتى من بصره .. كان ذلك البصر ، كهاته الاسلاك ، يمكن ان اتجاوزهما الى ما بعد .. الى هدير القطار .. وعجائب يافا ، فسر امى ، وقلت لها ، وقدر من الخيبة فى اعماقى :

ــ لم أرها بعد ؟

ــ ما هى ؟

ــ يافا !

فتلوى الرأس كما لا يجب أن يتلوى ، ولم ينتصب أمامى بكل الفواجع التى هى لنا ، وجاءنى صوت اغضبنى :

ــ ألا زلت تفكرين فى الامر ؟

ثم رمتنى ببصر يعود بى الى عمرى .. ولكن نضجا

أكبر ، كان يتوالى فى اعماقى جعلنى اعلن بمنطق يفوق سنين عمرى :

ـ لقد قررت الا افكر فى سواه

ودبت يدك الوديعة تريد ان تتلمس كتفى لان تحميني من كل شيء حتى من نفسى ، ولكن البذرة كانت قد سقاها صوتك : لسنا من هنا ..

وتصيدت انشغالاتك وخلواتك التى طالما انتهت باحمرار مآقيك .. ذلك الاحمرار الذى أصبحت أهملـــه لأشتد تنبهى للشارة التى خطها أصبعك من مدة وأنت تخطين اتجاها ليافا ، اجلس على حافة الباب واستسلم للدرب الغامض .. ثم يسير بى الزمن فتبلغنى ترنيمة الاسوره فى يدى وأنا أتلاعب بها فى سهو كاننى أطرد بها هذا الهدوء الميت الذى يلفنى من الدرب ، ولكنك كدائما ، بالمرصاد :

ـ ما معنى أن تجلسى هنا ؟!

ـ وما معنى الا ارى يافا !!

وتلاقى استفسارنا مع بعضه ، فنضحت عيناك دمعا وشددت بذيلك وقلت بتصرع : اننى احب أن أراها .. خذينى اليها ، فضممتنى بعنف ، وبلغت شهقاتك أذنى ولكن غضبى كان اعنف ، تسللت من حضنك .. وانزويت فى الركن الآخر .. وكل شيء تطبعه شهقاتك لا أراه ولا أسمعه ، لقد سقطت فى حزن كبير : أفلا تكون يافا هى مدينة وقواق فى حكايا الصغار .. محفوفة بالدمع والصمت والمغامرة .. هل

لا بد من البكاء قبل أن نبلغها ؟! . وكره فكرى الصغير قبول دور السندباد الباكى .. كأمـــى .. هاته التى أريدها أن تأخذنى .. لكن لن اقبل ابدا ان اعود على الدموع ...

وسرت اليها .. وقلت بغير صوتى : ما الفائدة .. ان الدموع تؤخرنا اكثر .. يجب ان نذهب

فتحاملت .. يا أمى .. يا امراة حفرت النكبات أسحس أغوارك فتفجر منها الدمع الذى يتبخر .. وقلت بلهجة لـــم تكن لهجتك من قبل :

ـ طيب .. اطمئنى ، سوف نذهب

وكان فكرك يدبر امره .. ولم افطن .. ربطتنى بصداقات لعل يافا تضيع فيها . وسمحت بزيارات ومواعيد وأحاديث .. وكان كل ذلك مدبرا باختيار منك .. فلميس فى كل ذلك الاما يسرقنى من يافا وهمومك .. وقدمت لى بهجة أخرى : أبدلت لى أسورتى بأخرى اكبر .. فكنت فيها ذات امتياز .

✪ ✪ ✪

.. ويافا .. وهاته الوجوه .. واسورتى .. وبقية الايام .. وجمالى : ان كل ذلك كان يركز عندى مـــا سأختاره . تدلهت يا محسن فى عينى وقلت لى : متى أذوق لايامى طعما ؟

فرددت : وهل ملكت الايام أى طعم !

وكان طعمك وما يمكن ان يكون طعما عندى ، يتواجهان: فلارضاء احدهما لا بد من ارضاء الآخر : رهنت مستقبل التذوق بما يمكنك أن تعلمه لى : فحكيت لى .. ويا للاهوال .. أمة مطرودة وعالم راض .. وبينى وبين يافا طريق سقته أمى

بالدموع . ولكن كيف تراه يا محسن ؟

ـ ان اعمالنا أمامنا .. ونحن الآن نتهيأ .

وطعم أيامك .. فهل تقبل زوجة بلا طعم .. وطعمى فى طعمنا .. واعمالك فى عملي .. والامام فرض علينا .. فعليك أن تعلمني كيف ؟

ولم تستطع الا ان تقول :

ـ انها المعركة ونحن فيها سواء .

ثم عرفت شعابك وزواياك ومخابئك .. كيف يطرح

الفلسطيني عواطفه فى عمله .. فى غير شبه بامى .. بك انت .. يا امرأة عرفت الآن مناحى مدمعها : يافا .. فلسطين .. وأهلك .. وابى : فبعد اشهر من زواجكما قرر : انها المعركة: .. وقد لا اعود . وبر بعزمه ولم يعد ، فاستمرت ايامك مع العواطف التى كانت ستكون لك ، ولكنها سرقت منك الى الابد ، ومع اولئك الادوات والخسارات وكثير من الامل ، وهاته الذكرى : انا .. بكيت بدمعك ودمعى ، وخبأت همومك وهمومى فى اعماقك وفضلت لى ان اكون من جيل بلا نكبات، ولن ابكى .. وتلك فضيلتك .. فلست من جيلك : جيل الحسرة والدموع : .. ولكن لن اقبل ابدا ان تفرضى على الهروب مما أمثله :

امراة بلا مدينة .. مدينتها موغلة فى الوحشة والحزن، تطأها أظلاف بشعر العصر الجليدى ، فيا امى .. كل ما هناك ، أننى أريد ان انتسب عمليا للنجم الذى يمثل عندى مدينتى ،

والذى ناجيته مرارا قبل ان اقدم على العمل .. قبل ان استحق أن أكون ابنة الرجل الذى عرف ما يختار : حبه او مدينته ؟.

قلت لمحسن .. وطعم الحياة الصغيرة يتملكه فى بعض اللحظات : ابدا .. اننى بلا مدينة وعليك ان ترفعنى الى مستوى الشعور بالقدرة على الانتساب اليها .. عمليا ، لاكون لك .

وفعل .. دربنى ، حيث كنت واياه نلتحم حول الجوهر الصميمى لما يمكن ان نكونه : فلسطين المنتظرة .

.. عرفت اننى أنثى تلزمها مدينتها .. رمــــز القطر والوجود بالتمام . وكان حبك يطغى . وبقية الاخريات هل يعين المأساة على نفس المستوى . وأمى تتخطفها فرحة صغيرة بسبب محسن . والجارات خلف السلك يمثلن المأساة فى أوجها . وذلك الرائح الغادى الذى يحرس السرقة : كيف أحتمله ؟!

وقلت بصوتك البهيج المتسلط ابدا :

ــ الحقيقة انك بارعة

قلبته بين يدى واقترحت :

ــ أريد ان تشترى لى مثله .. أستطيع ان ادفع .

ــ لماذا ؟

فلمتك .

ــ أليس عملنا فى الامام .

ووافقت ، فربض فى درج خزانتى المسدس الــــذى أتعشقه عوض أسورتى .. وأصبح كل شىء يتضح أكثر .

وكان حبك وغربتي يتصارعان .. وكيف السبيل ؟!
أحبها .. مدينتي .. كما أحبك وأكثر . وانى اتمثلنى فى الحضيض .. وليس هناك ما يرفعنى الا عمل حقيقى . وبقية الفتيات المطرودات كيف تراهن ؟ وهل تملك امراة أن تقول : ها أنذا . وأرقت الليالى .. واختلطت مناجاتك لى بمناجاتى للنجم فى الافق .. ولاح لى أنه رمز مدينتى يطل على رغم السور ودبيب اللص خلفه .. فتمنيت لو اننى من عصر العمالقة لاخطفه .

واخذت أمى تراقبنى اكثر .. فأصبحت أخافها واخافك وأكره اللص عند الاسلاك .. اكرهه واتعلق بالنجم .. وكان دبيب مشيته عند منتصف الليل يسحقنى : انه يتحدانى .. أنا .. أنا الانثى بلا مدينة .. يحمى سرقته منى برصاص الدولار ، وهلا يدرى اننى اكبر منه : امرأة تملك ما يدمره ويفنى خطاه الى الابد .

وعدت اليك يا محسن .. حشوت حنين الاعماق اليك والى مدينتى فى حضنك وسالتك بلهجة تكاد تبكى :

ـ الى متى ونحن ننتظر .. الا نستطيع ان نبدأ ؟

ـ العمل الفردى لا يبنى .

قلت هذا وانت لا تدرى بالطاقة فى اعماقى : ما تستطيع أن تدمره وتعيد خلقه ، وقلت :

ـ لكن هناك أنا وانت والآخرون

فسطع على ملامحك وهج رجل قد اختار امراته ، وغيرت :

– ومتى سنحتفل ؟

وكل ما أسمعه وأراه وأتطلبه أين هو ؟.. فلكأنك لا تدرى أننى ابنة من ..

– اجنبى .. متى سنحتفل ؟

حتى انت يا محسن !.. حذار ان تكون أصغر من ابى .. أن يكون الرجل فيك أكبر من الانسان

– نحتفل ! ، هكذا أجبتك باسى .. فهل نملك شجاعة أن نفعل . غرباء محتقرون يحتفلون .. تغريهم لذاذاتهم عن تقويم كيانهم والاعلان عنه : كأى انسان حقيقى .

ولمست يدى كأنك قيس .. فارتج كيـــانى بخطوات منتصف الليل والنجم فى البعيد والمدينة الضائعة فى مكان ما .. وكدت ان اكون أمى .. أن أبكى .. لاننى امراة تريد بطلا .. يضع على صدره هالة ويتقدم .. فامنحه يد ليلى .. هاته التى تعرف كيف تقتل وتحيى ، ولكنك يا محسن لحت لى فى البعيد .. تلثم كفى وتهمس : أجيبى . فاستيقظ فى ذلك الرجل الذى بذرنى قبل موته ، وصمم : قد لا يكون .

وحكت خطاى لوعة أنثى ضائعة بصدق .. بلا ام ولا مدينة او محسن .. فهم كالعالم قد غدروا بى : فأمى تلخلدنى كذكرى حب ابتدا ومات ، وأنت ترهن المستقبل للحظات ضرورية ، وأنا اريد أن أتجاوز اللحظات لاخلق أخرى فى غير الوحل .. فى غير هذا الدرب وبصماته ، فهل تستطيع أن تنجز أمرا خارقا ؟

وكل الليل كنت ابحث من خلال تصرفاتك وطبيعتك عن نعم .. لاقتنع بانك فى الغد ستفعله ، وبعد غد سنتزوج ونقيم العرس فى موكب النجوم . ولكن الخطوات ازدادت الحاحا .. واصرارها يحكى الماساة من الاول .. وابى قد ضاع منى الى الابد .. وهل يمكن أن استالم من سرقه ؟

واهتاجت كل جارحة . والارض كوكب مظلم لان نجمه الوحيد (يافا) فى البعيد . وأنت يا محسن قد انتصرت على حبك بحب اكبر . وطاقة ابادة تتفجر فى أضلعى . والسارق هو من سرق او من سكت عنه . وحركة العالم قد احتضرت الا هاته الخطوات . وليست أمامى غير بطولة أو موت حقيقى .. وصوبت .. ضغطت باتقان تعلمته منك .. فتناثرت صيحات الوغد فى المدى .. وافتر وجه النجم عن ابتسام ولاح فيه وجه لابى كنت قد رايته فى صورة .. واندحرت خطوات الصهيونى الى الأبد .. وتفجرت الحلكة عن دروب وأبنية وشارة نصر : انها مدينتى .. فيا يافا .. يا مدينة الأب والثار والرصاص والنجوم .. انك فى ذمتهم ، فى ذمتك يا محسن ويا كل الآخرين وكل محسن .. أن تبلغو بى يافا .. فالباب لن يغلق بعد .. وها نحن نشترع : فلقد مات الانتظار .

الحرب والاعمال

) ....

ـ هاتى يدك .

فتلوح عى الأفق ملامح عالم جديد التأمت أسواره بزلزلة حادثة تلكم التي تقول : ياما الحياة خدعة ا.

ونخترق اليم ولا نزال نبتعد .. أبعدنى : ففى اعماقى شىء ما قد تقوض ، احسسته ذات لحظة يفعل ، فانخرطت أبكى بحرفة واتشبث بالشجاعة ولا اكاد .. فما عادت الاسماء لمسمياتها أبدا .. كل قد تفكك عن سماته ، حتى انا .. تلكم التي قيل عنها انها ذوبان فطرى فى الاسمى قد تلاشت ، ولم يبق لها الا أنت ، حيث تضيف :

ـ اشربى .

فافعل . وتكون الكلمة قد عادت بى لماض لها .. كيف كانت تنزرع بعيدا عن حياتى المؤطرة بتصميم قدسى ، ينفى

الادون من سياجاتها ويبقيها أسطورة عصرية فى عالم يختنق غير الواقع .

وحينما تزداد لذاذة المرارة عنفا فى آحشائى ، احس بطعم انتصار ، ذلك الذى انجرفت اليه ذلك المساء ، حينما بددت ماضى امراة وخرجت أبحث عن الجديد ، لاقتل كل ما كنته ، واعلن ان الحرب يمكن ان تقتل اشياء عديدة ، على سطح البسيطة وفى متاهات الاعماق .

وأصب الكأس دفعة فتندلع نار . ولكننى مع ذلك أرفض المصطلحات السابقة ، هاته التى تدندن بها قريبا من أذنى ، كأنك تشدنى للكأس بشىء تعرف أننى كنت له : الاصيل والغمغمات الجذلى لعواطف صغيرة . فهلا تدرى أننى قبل أن ألقاك ، كانت معركة قد سرقت منى كل ما يخصنى ، واننى لو لم أختر ان انتقم من خداعها لى ، لما كنت معك ، اتجرع عنفك وكأسك . فلا تحدثنى بغير ما تتقنه ، بغير أسلـوب الحقيقيين الذين تجاوزوا فكـرة السلام الى حتميـة الشر ، فاستغلوا الدقائق والثوانى ، وسفكوا عمر الشر على الشفاه والجنس ، حتى وصلوا الى انهم لن يخسروا أبدا! . فيا أنت ؟ أفى عمرك غير الربح ؟.. أوقفت حياتك عليه وخاطبت عصرك بلغته ، وأتخمت الثوانى بما كنت ارفضه ، حتى هاته الثانية نفسها ، أملأها لك أنا .. أعطيك عطاء السنين الجذباء التى أيقظها حزن عظيم .. أوقفنى على ماكنته ، حينما ربطت زمنى بانجازات وأحلام ، وربطت أنت لياليك لزوجة الرجل التى

تفتح لك فراشها وتغلقه في وجه من يصغرك سنا : زوجها ، الذى حينما صادفته واياها مرة ، ملأت وجهه بعد كرامته بالصفعات ، فحققت بذلك شريعة الغاب في الشارع الرئيسي لان لك من الاوضاع ما يحميك .

وأسألك :

ـ ولو مع نفسك ، ألم تقلق ؟!

فترد على :

ـ ولم ؟! فتصرفاتي لا تبتدىء الا مما يجب أن تبدأ منه لأكون مع الكثرة .

ومع من كنت أنا ؟! هكـــذا أسأل نفسي بالم دقيق : فيالوعتي ! مع الفكرة وانتصار الاصلح والتطلع لان تأخذ الحقائق أماكنها . ولكن ما ذا جرى ؟! تكالب العالم وقال لا اعرفك : أهلك لا يستحقون غير الموت ما داموا لم يعرفوا كيف يحققون الحياة : أما أنت فلست غير طحلب يجف على السطح دون أن يخلق وجوده حياة أو موتا . والحب كلمة عتيقة ، والسلام لن تقبله بعد حتى المتاحف ، والحقـوق مصطلحات لا توجد في غير القواميس والظلم لغة العصر . و .. و .. و .. وماذا أفعل أنا ؟؟ـ اعيش المعركة بألف شكل، حيث تذوب أشياء .. حبيبة وعزيزة .. لئلا يبقى غير النسر المرشوم ع لىصدرك المفتوح للشمس واللذة . ومع ذلك هل أنـــدم ؟ ...

ابدا !. حتى ولو ان غلظتك تتكالب على سذاجتي

بتوحش ، فانني ألتهم الفظاظة منك لانتصر أو أنهزم : لست أدرى .. فلست الآن بأى مفهوم او مصطلح .. انما أبايك .. بالقسوة والنظرة الشنزراء والارضية الصماء . وأما الهدير .. هدير المدفع والميراج وتشرد اهلى فانه يخفت .. تستيطر عليه ضجة ساعديك وصدرك .

ـ يا شاردة ؟!

وتكون نبراتك طافحة بابعادها ، ولكن الجديدة فى لا تهتم .. فاترك المدى تأتى على ما تبقى فى من جذور الرقة لتطلع فى اعماقى فروع الصبار .. لاعرف بعد ذلك كيف يجب أن اتكلم .

ـ نعم .

بجذل بين الزيف والصدق أجيب ، علنى أعبد فيـك كل ما لا يعبد ، من فظاعة وقبح وجفاف ، لأكون قد عدت لعصرى ، إمسك مفاهيمه وجوازاته ولغته .

ـ قومى بنا .

وهل إخترت الا أن أستجيب ؟!.. وأعرف لم سأستجيب .. فهو فى عينيك وعضلاتك وأوامرك . ومن أيام ، عرفت لغة العيون المعربدة والعضلات المتوترة والاوامر الواضحة . لكن ما ذا يهم : فالمدفع يعود ، ليضرب ويقوض فى فكرى وقلبى كلما حاولت بقية منى ان تعارض ، لئلا يبقى غـير الدمار : فى وحوالى وبعيدا حيث كثير من اجثث والقيم .

وانفض رأسى عن المشهد، وأستدير نحوك ولاأعرف كيف

ابتسمت .. هل ابتسمت على نفسي او عرفانا لشطك الذي أقمته لمركبي الضال حيث أمكنني أن أحشر ساعدي وأجذب، فتتوقف قامتي وضلالي عليه ككيان .

– لم ترتعشين ؟

– لانني أرتعش .

– جبانة .

ولم أجب . فلو لم اكن كذلك لكنت قد واجهت العصر والحدث ككل الآخرين ، وبذلك احملك أنت والجميع على الاعتراف لي بفضلة من شجاعة : أما الآن ، وشجاعتي قد فاتتها الدلالة الحديثة فذبلت ، فانها لن تكون شجاعة في معترك مصطلح آخر ، يعيشه الحاضرون بلا تطفل على مصطلحات الاجداد .

واضفت ترد على الصمت الهادر :

– عجيب !.. متى تصبح ابنة الشعوب المتخلفة في مستوى ما يلزمها .. كالأخريات اللواتي نعيش واياهن على ظهر الباخرة في الترحال والاستقرار .

ولم تصمت :

– أليست كل واحدة منهن ابنة عائلة محترمة ؟!

فندم صوتي :

– وهل قلت لك مرة أنا ابنة من ؟

– لا يهمني .

كأنا بالتمام .. لم يعد يهمني من انا .. فأولئك الذين

زرعوهم فى دمائى منذ الصغر ، فى هالة من بطولة وقال لى انهم أهلى ، قد ذبلو ، كأنهم جنس سنينقرض ، لأن امكانيات الحياة قد تجاوزته . ولذلك فما يهم أن أكون ابنة من منهم ..

وكان غضب النمر فى عنفوانه على وجهك .. فكيـف تقبل ، انت الرجل الذى توغل نهمك فى كل مذاق ، أن تجابه بارتعاش .. ولكن ليست هى المرة الاولى .. فحتى وأنا أستعطفك أن تقتل حس الغلبة فى أعماقى بعنفك ، كنت أرتعش .. ارتعش ، ولو انه عنف شخص من قومى ، تعلقت به لاخنق عويل امراة قالت الاحداث انها تنتسب لمن ينهزم

ـ أوف !.

ثم حرقت القميص بتذمر فلاح النمر الآخر وحكاياه : البحار المغامر الذى شهدت بطولاته الامواج والصدف وجل الناس ، حتى أصبح الرسم لوحده ، عربون تاريخ شخص يومن بساعديه وغلبته .

ـ لاول مرة اشعر باننى مضايق .

فرددت بغير رغبة :

ـ لعله يجب أن تستريح منى ؟

ثم لم اعرف ما ذا افعل او أقول .. فوسيلتى الوحيدة لقتل الماضى يهددها ملل لا يطاق .. ولكننى أريد لشىء ما أن يموت .. بواسطته او بغيره .. ليكون على الاقل لدموعى لمـــن .

ـ الحقيقة أننى لا اعرف ما ذا أفعل بك !

وبلا وعى ، انطلق رجائى :

ــ اقتلنى .

فاصفر وجهك كقاتل محترف يكتشف لحينه ، ولكنه لا يسلم باعتراف :

ــ أقتلك !.. ماذا تقولين ؟.. اننى لا احترف القتل .. لو تريدين من يقتلك فابحثى عن غيرى .

فاندلعت فى اعماقى بسمة اشفاق .. لانك لا تفهم اى قتل يمكنك ان تقتلنى به .

وأفصحت :

ــ طيب .. افعل بى ما تشاء .

ولكن العينين اكتسحهما مقت عميق :

ــ ما لك انت .. كيف هو عقلك !.. اننى لا افهمك

كما لم تفهم الى الآن مـاذا جرى مـن مذابح وتشرد وابادة واستهزاء . ومع ذلك هل فهم العالم . وهل فهمت انا. وهل كان هناك من عمل فى مستوى أى فهم ، أجنبى .. اننى لا اسمع غير الطلقات وحشرجات حبيسة تنغرس فى اعماقى من بعيد .

وافتر صمتك عن غضب : اما ان تكون بدون عقـل واما أن أكون أنا .. أحدنا لا يمكن ان يكـون سليما . ففى تلو الليلة وأنا أظننى قد ملكت حصيلة ما فى متاهات البحر ، كنت تخاطبيننى بلهجة لم أفهمها .. (يقولون اننا لن نستدرك العصور الخوالى .. فنحن محكوم علينا بأن

نكون ذيل الاجناس الى الابد .. لان لغة العالم لا نتكلمها .. فاقتلني واقتل اعتدادا مبنيا على الخواء .. وقل لى : حتما أن تموتى موتك لانه فيك .. فى دمك) .

ولكن كيف ! فتلك بليتى .. وقفت الآن على ملمح منها .. ذلك أننى لا أملك أن أتكلم كالآخرين .. فصوتى قد تجاوزه عصره ، لأنه لا زال يطالب بما يلزم أن يكون المساواة للجميع .. بينما أنت والمعاصرون لا يفهمون . فعلمنى كيف أتحدث .

ـ ما لك تتمتمين ؟

ـ لا أتمتم ، ولكنى أرجوك ان تعلمنى كيف يجب ان أتحدث .

فتوتر صوتك بشكل أجوف :

ـ اذهبى الى المدرسة .

وكان جملتك كانت على موعد مع جرح .. فالمدرسة منها ابتدأ الداء .. فهى التى استغلت صفحتى البيضاء وطبعت عليها بلا واقعية او حدود : أجدادك فعلوا .. وأهلك يفعلون.. ومزيتهم انهم لا ينهزمون .. ولكن ؟؟ ..

واعدت القميص الى جسدك وتركته مفتوحا ، فالشمس لم تعد فى الاوج :

ـ من الآن ، اننى لا احتمل .

ـ ولكننى أقول لك الصدق .. فالمدرسة علمتنى لهجة لم تعد تستعمل من قرون ، ففصلتنى عن لهجة عصرى ،

وبذلك لا تفهمنى فأرجوك .. علمنى ان أتكلم .

ـ أعلمك ا

ـ والا فلن تفهمنى .

وبعد صمت صامت تفوهت :

ـ واكن على طريقتى .

وكان صوتك هاته المرة قد تخاذل بشك . فاجبت بتركيز :

ـ نعم علمنى .. فلعلى باسلوبك أتفاهم مع العصر وانسى نفسى .

فاستدرت نحو القـرص الملتهب المسلط على البحر الرصاصى ، وسمعت صوتك وقد تحول الشك فيه الى يقين :

ـ ليكن .

فابتسمت بلا رضنى ، وقالت أعماقى بلون منهزم للفرح :

نعم ، ليكن ، فبهذا حكم العالم وحكمت الاحداث . فليمت الموت ولتمت الحياة .. على الاقل ، لافقد مزية أن أتالـم .

ثم مددت يدك ..

(..

.. يدك !. فارتعد كل ذلك الذى هو أنا وارتعدت الدقات فصحوت :

الساعة الخامسة وهل النوم يقتل تلك الحيلة العقلية : الاخلاق ؟ لكنها كانت هنا وكان النوم الغير النائم وكانت

القضية ..

.. النوم بلا نومه ، وحتى الليل مثخم بما افو منه ..
ولا شيء من الاحلام والحقيقة الماضية يجدى : يجب ان
انتظر الفجر وألحق به ..

ثم تحركت نحو الشرفة ....

مسيح لا ينهزم ..

هنالك وهنا . . تنفجر الدمل عن أوبئته ـ فتسيح من أوردته أحداث وسموم . تنتشر في رمشة، ليعمى العالم عن أي شيء سوى عن فجيعة . فيا أيها المحروس بين قباب كنيسة وقبر لا يضم شيئا : أعد علينا حكايا العودة والنشور .. فلعل في جوهرك ما قد يموت .

ومن لفائف الغيب انتفض يعود .. مجلل الراس بالشوك القديم . ومد خطوته وراء أعتاب كنيسة القيامة ونادى :

ـ لعازر .. يالعازر ؟

والصمت الموبوء يغرس جراثيمه في المعمور . وهل ليس غير الاغتراب أساس للكون ، والعالم الحديث لا ينتصر الا للموت .

وتفجع :

ـ ما هذا ؟؟

كانت الشرائح والاجداث البشرية مطروحة فى المدى .. تلفح الارض والتاريخ بخصب جديد .

واضاف :

ـ لم الموت عند الاعتاب !

واستمر بسير .. المسيح العائد يسير .. يتلمس بعينيه كل الخواء .. فأين العالم وأين أهلى ؟.. يالعاوز .. كل رسالة لا بد لها من بشر وليس هنالك غير الدم اللافح .. مهروقا على الوجه المقدس للبقعة الخالدة . وأين البشر ؟.. هل عدت غريبا كما انتهيت !.

ونادى به صوت من نفسه : جرب أن تجدهم ... فالرسالات هكذا تكون .. فشد ازاره على كتفه ، وبدأ رحلته .. الشرق والغرب .. وفى مكان مـــا .. فى المدى القريب البعيد .. التقط صوتا يقول لرفيقه :

ـ كانوا يدفعون بنا لأن نموت حراما فى حروب 40 .. اما الآن ، والموت ليس الا استشهادا ونورا ، فها نحن فى التجميد !

فرد الآخر عليه :

ـ الحقيقة أننا من كان يجب أن يكـون لها .. فليس غيرنا بالاخص من جاوز أهوال الاربعين .. ولكن !

وبحث المسيح فى مصدر الصوت .. ولكـن الاتجاه

تغير ، بينما الصوت استمر :

ــ بالاضافة الى اننا نملك المعدات والجيوش والسواعد ..

ــ لكن ما كل ذلك اذا لم يكن لمحو العار . علينا ان نبادر ، فالتاريخ لا يرحم .

ــ أوف .. العار !.. كل العالم فيه .

فخبط المسيح يده بجبهته وشوكها كمن يستنكر . العار .. لا !. ولكن يده سالت بدم ، فهمهم برضى : لا بأس. كل الرسالات قد تتحرك بدم

وتخطى هو الصوت او الصوت تخطاه .. وقطع أمكنة ونشر صوته في الابعاد ونادى : يالعازر ؟؟

واستغرقت رحلته من عمر الزمن مدة ، وخطاه لم تكن تقف به على أحد . وشيء في هاته الدنيا كان قد مات . والشرق والغرب قد أبدلا اسميهما : نفاق وغدر . وأنت يالعازر ألا تجيب ؟ .

واستقرت غربة الرسالة وحيدة في اعماقه ، وفكر : قد تكون خدعة .. ان الموت رأيته عند مشارفي هناك ، فوارا صخابا في أجساد كأنها لا زالت تعيش .. بينما هنا هو كل شيء .. تحلل كل شيء حتى أصبح كل الوجود موتا .. بلا علامات او اثر .

وظل يرحل .. يمدد ظله على الخلاء في الجهات الاربع وينادي .. فلا يظفر بنمنمة او حركة او صدى ، وقرر :

ــ هنالك عند فوهة « القيادة » أثر للحياة .. أموات

تخبر بالحياة .. ساعود اليها . ومن بين وحشة التـــوحد والعودة الكئيبة وموت الصدى ، لاح خيال . فقصده : شخص غريب تكسو عينيه نظرة لا تستقر على شيء ، بينما عصاه تفتش فى مزبلة .

ـ يا أنت ؟

ـ ...

ـ أنت يا أنت .. ايها الشخص .. أين العالم ؟

فصدرت عن الشخص الغريب حركة جامدة ، ورأسه فى الاسفل ، وأجاب بلا اهتمام :

ـ لقد رحل

ـ الى اين ؟

ـ الى الحضيض

ـ الحضيض !. وأين الناس ؟.

ـ ومن أنت أولا ؟

ـ انا المسيح

ـ المسيح !.. آوف .. فكرة قديمة

بهلع :

ـ كيف ؟.. فكرة قديمة !.. الست تقبل هذا ؟!

ـ ولا الزمن يقبل

ـ ما ذا تقول ؟!

ـ اقول لك : انظر عند مرابع القدس ، فلقد حصحص الباطل ومات الحق .

فتراجع المسيح بسؤاله :

ــ ولكن أين الناس ؟ .. قل ؟؟

ــ لقد قتلهم من حاول قتلك !

فافتكر المسيح ، وسأله :

ــ لكنى سمعت قبل برهة ، حديثا بلا أشخاص ، فأين تراهم يكونون ؟

ــ فى قفص الندم

بلا صبر :

ــ أين الناس ؟؟

بلا اهتمام :

ــ لقد قلت لك : ماتوا بظلمهم ، لان الظلم لا يفتك بغير أهله .

وارسل المسيح نظره فيما لا يراه ، وزفر :

ــ لا يمكن ! ، أقتلهم يهوذا !.. الم يكفه ما فعل بى .. الا زال يلاحقنى ، لا .. لا ، أعوذ بالله .. قد تكون أخطأت ، أصدقنى القول سألتك بالله ..

فصدرت عن الشخص آهة عميقة قبل أن يجيب :

ــ الله !.. لطالما قرأت كثيرا من آياته !..

ــ واذن ؟

ــ لا تقل شيئا .. ان هذا يمزق قلبى .. أن أحس أن صوتى ظل تالفا لم يبلغ رحمته ..

ــ ما ذا تقول ؟!

ـ لا تعذبني أكثر
ـ ومن تكون أنت ؟
ـ النموذج الذى بقى
ـ نموذج !!
ـ نعم نموذج .. الذى ليس فيه شىء يمكن ان يحطمه يهوذا بعد ، لانه محطم من الاساس ، مفصول عن كل ما يمكن أن يجلب انتباه يهوذا : بلا معنى أو انتساب
ـ انك تحيرنى .. فما ذا أسمع ؟
ـ ...
ـ قل لى ياهذا ؟
فقاطعه :
ـ انسان اليوم .
ـ نعم ، قل لى يا انسان اليوم ، ما ذا يمكن آن أفهم منك ؟
ـ ألا تفهم شيئا .
بحنق :
ـ أيمكن أن يغدر يهوذا الى هذا الحد ؟!
ـ ليس بك وحدك . فبعدك صمم للناس من الدولار الأها وقال كابليس : تالله لأغوينهم بكأجمعين . وفعل : قسم العالم الى فئتين : نفاق وغدر ، وركبهما لنفسه كجناحين .. وبدأ يفتك
ـ هكذا !!.. وأين هو ؟

فأطلق الشخص الغريب ضحكة كالزعيق .. وأشار الى المزبلة تحت عصاه ، وأجاب :

ـ هنـا

وأحس المسيح انه تخلى قليلا عن صفاته . واستفسر :

ـ كنت أعتقد أنني قد تحملت كل شيء عنهم ، وانني بذرت شرقا وغربا كل ...

فقاطعه :

ـ لم تلح انت على المسميات القديمة ، فلا شرق ولا غرب. ألم أقل لك : النفاق والغدر فحسب ، فهل تعود لتخدرنا من جـديد .

ـ ولكنها مصطلحاتي الخاصة .. فأين المحبة والسلام والتواصل والرحمة والخير ؟

فنفض الغريب كتفيه بلا براءة ، واجاب :

ـ اسأل العلم .

ـ العلم ؟! .. ما ذا تقول أنت ، انك تحيرني .

ـ انه اسم آخر لاله جديد عبدوه .

ـ لا .. ليس هناك غير اله واحد .. ولقد علمتهم هذا .

فهز رأسه والعصا لا زالت في المزبلة ، وقال بتوجع :

ـ حتى أنا اعتقدت هذا .. ولكنه تخلى عني .. بينما العلم يستجيب لكل طلب .

ـ تخلى عنك ! .. الله لا يتخلى عن أحد .

ـ لا تذكرني .. فذلك اليوم .. حينما شاهدت يهوذا

وهو يقتل محبتك وسلامك ومثلك وأهلى .. رجوت الله باحتراق باك أن يتدخل .. أن يجعل صولته فوق صولة التجهيز والعلم ، ولكنه تركنى .

ـ وما ذا كانت النتيجة ؟

ـ الدمـار .

ـ أما انا فاعتقد أنه الله .. الله فى كل شىء

ـ ولكنى أظن .. أننى لو كنت قد ادخلت حتى العلم فى ايمانى كما فعلوا ، لاستطعت ان أنقذ الانسان ونفسى .

فصاح المسيح ·

ـ انك تعذبنى . وتراجع : لكن لا بأس .. فذلك من متطلبات رسالتى .

وسكت قليلا ثم خطا نحوه وقال بتعاطف :

ـ لا داعى لهذا اليأس .. اننى بجانبك

فابتعد الشخص بعزيمة ورد بلا اهتمام :

ـ لقد فات زمن التخدير .

ثم اوقف العصا عن التجوال فى المزبلة برهة ، واضاف بتركيز :

ـ انج بنفسك يا سيدى ، فليسمت هناك من رسالة .. ان الرسالات بأصحابها .

فحملق المسيح فى أسفل العصا وأبدل ·

ـ وما ذا تفعل ؟

ـ لا شىء .. اننى أقطف الجراثيم ..

ـ ولكنك في حالة منحلة .

ـ ان تكن ، فليسنت بسببه .. فلقد سحقت يهوذا من حسابى : ولكنه حياد السماء !!

ـ لقد عدنا للرسالات ..

فاصتر الشخص :

ـ لكن ليش على طريقتك بالتاكيد

فحرك المسيح راسه بوجع :

ـ ايه يا يهوذا !.. لاحقتنى فى أهلى .. ولاحقتهم فى .. فوجدوك حائل بين لقائنا ، فحتى وأنا انضنو عنى حجب السماء لالقاهم ، كنت أبرع منى .. مجرد مكر واجـرام .. حيث قتلتهم حتى لا اجد من القاه . ولكن ما العمل ؟

ـ انج بنفسك .. انه لكل مسيح بالمرصاد

ـ والى أين ؟! .. فمن قبل ، لقيت الله فى السماوات حينما كنت مؤهلا لذلك : حينما بذرت فى الناس ما اعتقدت أنه لن يموت ، أما الآن ...

ـ أما الآن ، فانظر عند «قبرك» ما ذا صنعوا .. كيف قتلك بنوك بما فعلوا .. وكيف أجرموا فى حق الذين أرادوا أن ينحوا بهوذا عن مسيرة التاريخ .

بغضب :

ـ ان أولئك غير ابنائى .

باطمئنـــان :

ـ ولا هم عادوا يقبلون ان يكونوا : فليسوا غير أذيال

ليهـوذا .

فصاح فم المسيح بحكم كل المقدسات :

ـ يا يهوذا .. ملعون من زمان .. وملعون فى عودتى .. وملعون الى الابد .

فدارت العصا دورة جوفاء ، ونطق الفم :

ـ ذلك شانك .

بينما تابع المسيح :

ـ ألم يكفه أن يحمل دمى ، فحمل دماء كل مسيح .

وعاد الى الصمت ، ثم تركه الى الكلام ، فسأل :

ـ واذن ؟

ـ واذن ! فلقد جئت فى اللحظة المناسبة ، لتكـون شاهدا على الوباء .

فنفرت خطواته قليلا ، وصاح صوته :

ـ لعازر ؟ .. يالعازر ؟ لعا .. ز .. ر ؟

وما اجابه غير صوت الشخص الغريب القريب منه :

ـ ها انت ترى . لقد قتل فى صوتك الحياة .

ثم أضاف :

ـ عليك بالنجاة .

فانفطر صوت المسيح بألم :

ـ ان السماء لا تقبل رسولا بلا رسالة .

فرد الشخص بهوادة :

ـ قل للسماء .. ان متطلبات الآن ، هى فى رسالات

أرضية قادرة على قهر الجراثيم ويهوذا .. بنفس أسلحته .

فعاد صوت المسيح الى طبيعته :

ـ ولكن ذلك ما فعلته فى الماضى ..

ثم استدرك :

ـ أوهكذا اعتقدت .

ـ لكن الاصح أنه هو الذى فعل : قضى عليك ، فيك وفيهـم .

بأسى :

ـ اذن فقد هزمنى ؟

ـ لو اعترفت .. وليس الحدث ببعيد

بيأس :

ـ على أن أقتل نفسى

فرد الشخص بتجرد غير مبال :

ـ لقد مت فيهم من قبل ، وان تفعله حتى الآن ، فان يكون ذلك غير أنه يقتلك بيديك .

بشرود منشده :

ـ نعم .. فانا مقتول فى كل جسد رأيته مطروحا عند الكنيسة .. مقتول بحكم يهوذا وتنفيذ أتباعى .. لهذا ، فلست الآن غير شبح مهزوم يعود . على أن أموت .. على أن أموت ...

فخبط الشخص العصا بالمزبلة ، وهمهم :

ـ سيان هما الموت والحياة .

فأكمل المسيح كأن لم يسمعه :

ـ لكن .. والرسالة ؟

فرد عليه بنفور متأوه :

ـ لا تسألنى . لقد كنت من أهلها فى انغمار صوفى .. ولكنها لم تبلغ بى خلاصا .. ان أهلى ...

ان أهلى ...

ولم يتم ، انتفض صوته عن حشرجة دامعة حرون .. فحاول ان يقهرها فى العالم الاذون .. فى العصا والمزبلة والحركة التى لا تنتج .

ولكن المسيح لم يكن معه ، فهو ليس فى الحشرجة الحزينة ولا الدمعة الجافلة او الحركة الجوفاء . انه يدور بتركيز ، وعيناه فى مطلع الشمس ، وفى المدى صدى خافت لولادة ستوف تحدث ، وعينا وأذنا المسيح لا زالتا فى مطلع الشمس والصدى . والحركة منه تحكى أن الحياة هى سلسلة من الحركات . والشخص وحركته ليستا أصلا . والصدى يتحول فى رأس المسيح الى فكرة . وحركة المسيح لاتتوقف وهو يقول :

ـ اننى أفكر فى الاخرى .

فرمقه الشخص دون أن يبصره . بينما أفصح المسيح :

ـ فى الرسالة الاخرى .

فذابت عن البصر ، بصر الشخص ، كتلة من الغمام ، واتضحت الرؤية قليلا ، فى الرأس والنظر . واستفسر بلا يقين : أنت ؟

فلم يترك المسيح مطلع الشمس ، بل تحول بحركته بحيث أعطى لعينيه وضعا ليستعا الشمس والشخص والنور والصدى ، وأوضح :

ــ نعم . فان لم تعد رسالتى تحقق اى خلاص .. فلن أعتقد بعد الآن فى غير رسالة متطورة .. اذ كما فهمت منك .. فلن تكون لهذا العصر غير رسالته هو ، المشبعة الى حد ما برسالتى ، وذلك حتى لا أموت ، فأهزم مشاريع الفناء فى تخطيطات يهوذا .

فانفنح تعينا الشخص ، واتضحتا اكثر ، واستمر المسيح :

ــ وكما أكاد أعتقد .. فان هنالك ، يمكن لى أن أبحث عنها وأسأل ، لان الصدى قد حبل به العالم من هناك .. سوف أعود اليهم .. فقد شاهدت الموت فيهم كانه حياة .. حياة ..

فانفعل كبان الشخص وارتعد ، كانت أطباق من اليأس تسقط عنه برعدته ، ليرد باصرار حقيقى لجنس بأتمه :

ــ ذلك لانهم لم يموتوا .. أبدا لن يموتوا .

وبغتة .. ارتج الصمت والصدى من بقعة النور ، من ساحة الموت الطرى الذى لن يموت ، والتزم :

(احنا لها) .. (احنا لها) .. (احنا لها) ..

فترك الغريب العصا والمزبلة والتفت .. بينما ارتاحت قامة المسيح فى نشور الصوت الوليد الصخاب : لعازر .. لعازر الذى يعود ..

قتلى !! ولا موت ...

ياصبح ؟

ان الاصباح من أيامنا لن تموت ..
فامــة أنجبتك ، لن تكون دياجيرها
غير ومضة من حلم فازع ، لن
يدوم غير ليلة ولحظة ليتم النشور . وماذا لا اتذكر : البذرة
وحقل الأجداد ونداء الوعد (حي على الجهاد) وذلك العزم الذى
من صوتك لن يموت : ان الايام المقبلة ايامى ! فيا لوعتى ..
أيامك والاسطول السادس والسابع والمدرعات وحاملات
الغدر وقسم المخابرات والطابور الخامس والجستابو الجديد
ومن أنت : انسللت من القدرات العادية للفرد وصحت بى :
ان ذلك لن يهزم العملاق فى . ثم تخطيت بكل ميراثك من
المكدسات الباهرة لامة لم تقهر ، جحافل السماء وطوفان العتاد
وأعلنت : أحتقركم يا لصوص العالم وجرائيمه .. فلــن

انحداكم بغير ما اعتقده : بتلك القمة الشماء من بطولات سأنجزها .

.. وأسير .. وذلك الصمت الموبوء ليس له من وجود: فالقرقعات فوق راسنى ولا اعبأ .. فما الموت غير ان يكون حياة ، فيك وفى الآلاف المنتقمة وفى النظرة الشزراء فى بصر سعد . فاضرب ياصهيون .. أحرق .. انشر الدمار : فليس وراءك ما تنطلق منه غير قرون من الفظاعة والحقد .. لكن هذا القلب لن تناله ، هذا التصميم الحرون والصخاب فى دمى ، والذى انحدر الى من قرون وجيهة كيف لك أن تصله : فهو ما سنقتلعك به لنطرحك عفونة تاريخ فى سفر الذين صنعوك .

وأتابع المسير .. والازيز فوق الرؤوس يخنق الحقوق .. وهذا الخلاء قد وشيته جثث عزيزة .. فيهزنى حنين لان أنادى عليك ، ولو من خلال هاته السجف المنقشعة عن حاضر مهموم ، لكنى اعود فأندم : فما الليلة وما هاته اللحظة !.. اليس كل ذلك سوى التجربة القاسية فى اعمار الشعوب والحضارات والاجناس .. هكذا ياصبح اومن .. والهياكل المطرودة مليون شخص تصدمنى ، فأتخطاها ، انها لا شىء سوى الحطب المقدس لليوم الاغر الذى سنلقاك فيه : أصباحا وشموسا فى جبهة الغد المنتظر .

ودبت لمسات على كتفى لم اعبأ بها ، ولكن الصوت بلغنى :

ـ أنت عارية يا ماما !

فأجبته كيفما اتفق :

ـ حتى العرى نوع من الحديث مع السماء .

فتطلعت الى العينان المدلهمتان واضفت : كانت السماء قد قالت يابني : (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) وانا الآن اسالها عن ذلك القول وهذا العرى ..

وظلت العينان عند الغموض ، فأخرست الكلمات الاخرى التى كانت على شفتي وتمتمت بهدوء غير منتظر : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مومنين) ثم التفتت نحوه وقلت بشيء من التركيز :

ـ انها حالة لن تدوم يا بني

ومع ذلك لم يكن قد فهم ، بينما كنت انا مع غيره :

انها البداية .. وجولة واحدة لا تهزم .

فانغرس وعيي ولا وعيي فيما ارى .. واختلط المكان ببعضه .. وتمطط الزمن الى غده .. وصاحت الافواه كلها بفمه ، وانطلق منها نفس الاصرار : انها البداية وجولة واحدة لا تهزم .

هكذا يتكلم العراء والدم .. بينما الطائرات تحاول ان تطمسه .. ولكنه ما يفتأ يرعد : منى ، من هؤلاء الشهداء ومن ذلك الصوت الواعد وهو يعلنها من عمان ، فيا ايها الصبح ؟ الا تراها ، الا تسمعها : فلقد انمحى ذلك الظل من التعاسات التى حاولت جبهتهم أن تطمسها به ، لأننا غطسنا فجأة ، في بحبوحة عزيمة ، فاقتنعنا بماهو أقدر من النصر ، مع هاته القيادات الناجزة .

وتابعت أسير وأنا اتذكر : كيف علمتني ان حياتك هي حياتي .. لينستا الا عملا واحدا .. خاليا من التأسفات واليأس والدموع .. بل سلسلة محبكة من عزم يهد الميزاج والميك وتدفق المصفحات والغدر ، وان أنا أخطو الآن بخطوات بطيئة ، فلانني أشد ثقلي كله الى الأرض .. اتصفحها وكأنني لا أستطيع ان اتنصل من وعدي لها .. هو في عنقي وعنقك وعنق سعد .. طفلك الصغير الذي يسألني :

- أمي .. وأين أبي ؟
- في فلسطين
- واين فلسطين ؟
- فيك يا ولدي .

وفي صوتي وفي بضع خطوات وقعت على غلطتي : فكيف افر !! .. وانت يا سعد فلسطين ، فكيف احملك على ظهري وأخرج بك وأترك الديار !.. لماذا ؟.. ألانك ياعمان .. ياندا، الصمود البكر .. تشتعلين في قلبي كواحة ، فانسى الآخرين ولا أهتم بغير نجاة ابني !.. لكن لا .. لن أتابع .. فالى تلكم الدار .. الى تلكم المباني التي تلفها .. والى تلكم الشوارع التي لطختها اقدام الطغمة الفاسدة سأعود .. ان فلسطين على ظهري ولن أسرقها .. ففيها .. ومعك يا عمان في القرب .. ومع صبح الذي ينتظرنا .. سأنغرس في البيت والشارع والنفوس والتربة .

وعدت اعود ..

لن أترك شبرا الا اذا تركت حياتى .. فلا مفـر .. ألستت غير واحدة منتسبة لجيلها .. عليه وعليها ان تثأر .. أن تسفح الدم عبر الارض والزمن .. وأن تبث حقدا موجها لمستحقيه .. وان تكفر بكل مبدا غير الحياة او الموت ، دون أن تقوى أى مثل جوفاء ان تنتزع منى اليقين المسيطر : الحياة لى ما دام العالم لا يومن بغير حياته .

وكان الموت لا زال يعوى فى الفضاء دون آن يستطيع أن يميت عزما او بطولة .. ولا قتيل قد مات .. وكلهـــم سيتناسخون فى غيرهم .. والواحد سيصبح كلا .. وانا لم أعد أفهم ما معنى الحياة خارج ضريبة الموت .. وبصر سعد خال من غير الغضب .. ويوم الحشر أظنه هو هذا .. والبشر من خلال الموت يبحثون عن الحياة .. وانا منهم : أين حياتى ؟ .. فيا صبح .. لان تكون بين اضلعى أو فى الموت او فى الندى كنجم .. فلن تكف ابدا عن أن توجد .. اذ من أنا ومن سعد وما كل هاته الهمم الصاعدة كبراكين من نقمة لن تروى بغير الثأر .. فكن أينما شئت .. متسللا الدروب أو قاطعا المسافات او مغتالا على قطعة ارض .. فاسمك حرية تحد رعناء لكل قهر مفروض ، يمحو عن الحياة ان تكون هى نفسها اذا ما فقدت حتمية النقاوة والنصر ، فمن هذا يا صبح .. من هذا المشرف الراعد بالموت الذى لا أعبا به ، أزكى فى نفسى كل ما سأتقنه ، لاقتلع حضورك الحبيب من الدماء التى أقسم أن أريقها .. أنا .. انا المراة التى تعرف كيف تكره

وتحب .

وفى طريقى أعود ..

وبودى لو ركبت فى صوتى اجهزة الصياح : عودوا .. انغرسوا فى التربة ولا تقتلعوا لاى أعصار .. مددوا جذوركم الى أعمق قعر واتركوا وجودكم ليؤدى حياته : الثأر .. الثار .. والى الامام .

وفجأة ، لمحتها .. كتلة الذل من عصور تقطع مع غيرها دربنا القديم .. تحتل المواطىء التى كانت لنا قبل الغزو الجهنمى الذى اشهده . فارتعدت تصاميمى لان أبداً .. ولم لا .. فلا شىء حقيقى غير المدية والثأر والارض التى افتديها: فلسطين . وجذبتها بعنف واتقان امراة ضائعة ورميتها فى ركن من دربنا وخرقت صدرها بالنصل الذى كنت أخفيه . وحينما كنت أفعل ، لانفذ الميثاق الذى يوحدنا ، انسل سعد من جانبى وأخذ حجرة ورماها على رأسها فى زمجرة .. ثم ضغط قدمه على وجهها وسحق . فسللته من الاحتقار والدم وحشوته فى حضنى كوعد كبير كبير سوف يكون .. وقبلت القدم .. قدمك فى قدمه يا صبح .. تلك التى حكوا لى عنها بأنها واصلت زحفها الى مشارف تل أبيت .. تقتل وتهلل وتمنح لنفسك التلذذ بكل السعادات الخارقة .. وكيف ؟ان هاته القدم أبت أن تتراجع .. أقسمت بصبح الانتقامات فى دمك أن وقف القتال لن يكون .. فالقتال فيك وحواليك وفى هذا العالم وكل الوجود . قلت لهم : لى رجاء .. أبلغوا سناء

بركاتى واننا على العهد .. فسوف لا ألقاها الا هنا .. وقال آخرون : التحق بفرقة فدائية للعاصفة وكان من أنشط عناصرها وقال غيرهما : انه لم يمت .. فبطولاته باهرة .. وانه يتحرك بشكل خارق .

ولقد سمعت وأسمع وسأظل أسمع : أسمعك . فكل كلمة ، كل تفاهم ، كل تآزر ، كل شىء كان لى فيك سأنقذه بما سأفعل .. سأؤكده بما علمتنيه .. بان الانسان وما ثره غير قابلة للفناء ، ما دام هناك من يرفض بصلابة آن يحنى هامته أمام تيار التيارات . ولذلك ولو انك غائب .. ولو اننا قد لا نلتقى .. فان أى غياب لن يقتلعك من حياتى ومشاريعى ومستقبل سعد وغد أمة . يا صبح .. يا ترنيمة شباب لا يشيخ .. ويا جدة سرمدية تبشر بمطلع الايام والشموس : إننا على العهد .. وأيامى بلا فراغ .. فانت ملء الفراغ والتصميم وما سانجزه .. حاضر فى فكرى وخطط ومسعاى ، لاننا ببعض : فى عملك وعملى ، ونحن فى اعمـــال الآخرين .. وجميعنا للثأر

واخطو بحذر .. فالبيت قريب
ويباغتنى :
ـ أمى .. الا نقتل غيرها ؟

يا للمنطق المكتمل : القتل !. اتسمع يا صبح ويا قتلى ومطرودين ومصممين : دماؤنا لن تشيخ قبل النصر الاخير ..

فهي للمعركة من الفطام .. فاثبت يا صبح .. فسعد يتفهم الواقع ووسائله . وتصاميمنا تزداد ضراوة ، ومواصلتك العمل فى اللحظة يحييها ، والمستقبل ليس غير باب مفتوح لواقع وأمل . وانت وآنا وسعد عربون التصميم فى الزمن . وما الموت اذا لم يكن وسيلة . والاحداث هنا تؤيد بلادة الغرب . والتنين الصهيونى قد ملأ ادمغتهم باضطهاده والفاشية والنازية لهما وجه جديد . وفهم الحقائق قد اختلف بين الشرق والغرب . والنور قد اثبت من عصور انه لا يسنطع الا من هنا : ودماء نقية كثيرة يجب أن تنبته ، وقد تكون أنت وأنا من قطراته . اما سعد ، فلن يكون غير سائر على وهج المعركة .

ـ أمى خذى المفتاح .. كان مع المدية فى يدك .

يا أمطار ؟

مطر ؟ . وهذا النداء الأرعش أتراه يبدد غبنا .. هذا القائم هنا : فى الجرة والحصير والاهتراء على حافات الجدران.

وقالت ابنتى :

ـ أعطينى خبزا .

فاشرأبت العينان ، عيناى نحـو الضباب الـواعد ، وانحدرتا نحو المنديل الوسخ المهمل فى الزاوية العفنة ، وأجبت :

ـ سيعود أبوك بالطحين .

ـ ولكنه تأخر .

ـ قد يأتى عوضه بالخبز .

(فى الاتفاقية الاخيرة ، تسلمنا مليون واربعمائة ألف قنطار من الطحين . . و . . واستمر المذيع ...)

— انني أريد أن آكل ؟

وكنت أتساءل في نفسي .. مليون وأربعمائة ألف قنطار ! انه قدر كثير كثير .. يكفي لهذا الدرب الذي يجوع . لكن من أين سندفع ؟ واستمررت في السؤال : والذين تسلموها ماذا تراهم قد دفعوا ؟؟.

وحن قلبي لليوم الذي نجد فيه ما نشتري به كل هذا الطحين ،. فهو ضروري لكل الجوع الطويل الذي تراكم في أحشائي مع السنين ، رغم المطر .. رغم نوتيلي : يا مطر ؟.

ولم تعد ابنتي تتحرك .. كانت كئيبة بالفطرة ، يزيد الجوع كآبتها استفحالا ، فترتمي في نوبات بكاء متشنج وهي تجذب صدر ملبسها باحتجاج ، كأنها تمزق في أسمالها وضعا أنا وأبوها المسؤولان عنه .. ولكنني أشفق عليها وأهتف : يا ستار ؟.

وخفت أن ترتمي في انتقامها مني بذلك العويل السحيق المحمل بلوعة مخلوق لم يذنب . فبدأت أدغدغها :

— غدا سيكون الطحين في كل سوق .. بلا ثمن يا حبيبتي .. وسوف أعجن لك منه الكثير .. وسوف نأكل ونأكل ولا نجوع أبدا .

فابتسمت لي وقالت :

— وأريد خبزا اليوم .

— نعم .. سوف يعود به أبوك حالا .

— أبي لا يعطيني خبزا كافيا

ـ لكن سيكون فى الغد أكثر من الكفاية .. فقد جاء الخبز هذه السنة قبل المطر. وهمست: عجيب أن يحصل هذا.. ان فى الامر سرا .. أن يكون الطحين بلا .. بلا مطر . لكن بأى شيء أصبح يكون ؟!. لو كانت جدتى حية لسفهت النبأ وقالت : أبدا ، ليست غير السماء التى تجود بلا عوض ، لانها أدرى بالخبز وهو طحين وقمح وسنبلة وأمل فى رحم الغيب . فهى خبازة بالحرفة ، ربتنى وأمى من عرقها فيه . ولو لم تمت لكنت مملوءة بالخبز وعلى مقعد فى مكتب وظيف ، كزميلاتى اللواتى كانت الاستاذة تشجعهن بى :

ـ انها ذكية ، تتلقف ما أقوله وأكثر ، يجب أن تجتهدن مثلها .

ولم تكن جدتى لتطلب منى غير بديل واحد : أن أجلس عند لوحة الخبز فى غير أوقات الدراسة لأبيع ، فتذهب هى لشؤون البيت والعجن وتهيىء المزيد . بينما أنا أتلقف دروسى وحكايا الكتب ودراهم المشترين . ولكن استهزاء ليلى فاجأنى :

ـ بائعة للخبز !.

من يومها مات السلم بينى وبين اللوحة وجدتى . وتدخلت أمى : متى كانت البنت فى قريتنا فى المدرسة ، أنت التى أفسدتها . ان المدرسة لبنات المدن .

ولكن جدتى ، بعينيها المتورمتين من فرط الانحناء وبما التقطته عند اللوحة ، ترد : التعليم أحسن من الجهل . ولكن

هذا الرأى لم يكن رأى أمى ، فلقد قررت غيره بمجرد اختفاء جدتى فى التراب . فاختفت اللوحة ، وقل الخبز وهمد تدخل ليلى . وحسمت :

ـ الرجل لا يعاب ، والبنت أصغر منك تتزوج فى القرية .

وكنت أنهم : فليس بمقدور زوجها بأولاده السبعة الذين أضافت أمى اليهم اثنين أن يتحمل خبزى .

ودمدمت ابنتى :

ـ أمى لم يعد أبى .

لكنى كنت أعرف انه سيعود .. فهو لا يفعل غير آن يعود .. بالخبز أخيرا ، كالعادة ، سواء وهو يتعب أقل ، أو وهو الآن يصيح بين الدروب على الأحذية البالية ، ليتقرفص مع جلدها الجاف فى الجانب الهامد من الدرب ، حيث يباشرها هى وأحذية الجيران ، فيكسب خبزه ، ليأتينى به دون أن يهتم بشىء غير اتيانه بالخير .. سواء وأنه قد كان خرازا محترفا . ثم أصبح عاملا فى معمل للخرازة ، وأخيرا اسكافيا يبحث فى الدروب عن وسيلته .

وبالفعل ، كان وجهه يتجهم مع الزمن .. كابنته منذ البدء ، ولكنى كنت فى البعيد .. فهوس زمان لم يفارقنى : كنت أتصيد ما أقرأه من بنات الجيران ومن الصحف البالية التى تغلف بعض المبيعات .. فسواء كنت فى بيته أو فى غيره أو فى أى مكان ، فليست غير طالبة لحرف أقرأه ، دون

أن تقلقني سوى غيرته الفظيعة وتنمره المشاكس وضمته الأرعن الفوار . ولكن أمي كجدتي ككل من أسمعهن ، تقول : كل الرجال كذلك ، بل من المرأة غير امرأة ، أما الرجل فرجل ...

واستسلم . فقد طبع موت أبي في نفسي من الصغر ، استسلاما كاملا رغم أن جدتي بمحاولتها الجريئة أرادت أن تبرئني منه . ولكن هيهات : فمن النكد أن يكون الانسان لا بدويا ولا مدينيا بالتمام .

قمت وأخفيت المنديل ، ومسحت دمعتي النده في عينيها، ولكنها تنصلت بعنف وزفرت على غير العادة : أبي ، أبي ، أبي ؟. فلفني نكد من صوتها ، كأنني معها وبعيدة عنها أما هي ، فمع أبيها ... ولكني كنت بالخصوص على الهامش . فأمي مع زوجها وخمله ، وجدتي وأبي في القبر ، ولا أحد ، سوى هذا الجفاف المحاصر الذي يربطني بهذه البنت وأبيها . ولكن ما العمل ؟.

رتبت الفراش بشكل آلي وفكرت وأنا أسمع شهيقها : انه الجوع .. لكن ، لمن جاء ذلك الطحين ان لم يكن للجائعين والجائعات من أمثالها .. فهو مليون .. نعم مليـ .. و .. ن وأربعما .. ئة ألف .. قنطار !!.

وداعبني أمل : لربما كان هذا الطحين في طريقه إلى مستحقيه ، وان زوجي يأخذ حقنا .. ليعود .

ورغم دمعها ابتسمت .. لانني أتقن كثيرا أن أبتسم ، عكس فاطمة وأبيها . والحق يقال : فهو دائما يعترف لي : لولا

ابتسامك لمت .. فهى الطيبوبة الوحيدة التى اجدها فى حياتى ..

وانهالت على ذاكرتى كل معاشرتنا .. فمع انه صلب ، الا أنه شهم الخصال .. لا يشكو .. لا يتأفف من العمل .. أي عمل .. بخلاف زعيق هاته الوحشة المتنمرة من الأول ، كأنها صورة لأبيها ، لكن ، من غير مسالمة أو مرونة .

وانكببت من النافذة خلسة لارى عودته .. فهو قد حذرنى من أن أفعل ، حرصا من العيون . ولكن ابنته تعول وتحملق فى بعيثى لبوءة مجروحة غير قابلة للصفح . وأفزعتنى شهقتها المندلعة من جديد : أبـ ... ى ؟.

فاقتربت منها ، فنفضت يدها من الذراع ، وصاحت : أريده ؟.

ـ انه فى الطريق .

وانتظرت أن تكف ، ولكنها واصلت . فحملت الجرة الى فمها لاسكب فيه جرعة تطفىء اشتعاله . فتمتم فمها بتوتر : ب ب ب .. ولم تشرب . فانطلقت من صدرى زفرة ، لانى لو كنت أملك أن أخرج ، لاندفعت أبحث عنه . ولكن هذا ما لا يسمح به أبدا .

قبعت قرب النافذة ! وبغتة وجدتنى عند الغمام أنشد من أجلنا : يا مطر ؟. ولكن ، فى قلبى كان حنين غامض لالواع منه .. يذكرلى بها زعيق الطفلة ، وركونى الى العتبة ، وعرق احمد الوسخ وهو يعود ، والحصير وظلمة الغرفة

وكل شيء ..

ارتبطت لبرهة ، عيناى وقلبي وشفتاى والسماء : يا مطر ؟ يا مطر ؟؟.

ـ حليمة ؟ حليمة ؟؟ يا مصيبتك يا حليمة .

فسقطت بغتة من السحب وانكببت على النافذة دون ارادة : من ينادى ؟. كان الدرب يمتلىء بسرعة وسمعت : زوجك ! فتراجعت برعدة : قد يكون رآنى أطل ! يا ويلتى !! نه سينتقم منى . وعنف اللغط ودخلت الجارات: ألا تسمعين.. زوجك اشتبك مع أحد أفراد القوة الاحتياطية ...

فخرج صوتى هلعا : لماذا ؟ ألأنه رآه وهو يرانى أطل من الشباك ، اننى لم أره .. كنت فقط أخاطب السماء .. أطلب المطر .

ـ قتلوه .. انهم قتلوه .

وتاه بصرى ، وكف نحيب الطفلة . واكتمل الخبر :

كثيرا ما منعوه من مباشرة عمله فى الدرب . كان يستعطفهم ويقول : اننى لا أبيع شيئا ، وأنتم انما تمنعون هذا على البائعين ، ولكنى فقط ، أجلس هنا ليأتينى الناس بأحذيتهم ؛ وجاءه بالامس أحد منهم فأهانه . واليوم أفرط له فى الاهانة ، بل لطمه على خده ، فضربه احمد بالسكين التى يقطع بها الجلد لينتقم ، ولكنها ضربة غير قاتلة ، ثم هرب الى مرأب بائع الفحم بأبى الجنود واختفى بين أكياسه ، فلاحقته فرقة من القوة الاحتياطية ، وجندله أحدهم بمسدسه.

وكأنني لم أسمع شيئا ، وصحت كما لم أفعل فى حياتى :

ـ وماذا فعل لهم ليقتلوه ؟.

فصاح بائع النعناع الذى كان عند الشباك : لانه لا يحق له أن يملك شبرا من الارض .

فتمتم فمى بانشداه كالغيبوبة :

ـ انه لا يملك أرضا .. انه فقط يريد لنا الخبز ..

وحملقت فى كل الوجوه .. كيف هى الآن معى بلا حجاب ، وتذكرت ابنتى ، فاندفعت نحوها وقلبى يحترق وفى عينى أنهار .. ولكنها انحرفت بعيدا ، ووقفت صامدة بلا دموع ، عند بداية الدرج وأمرتنى بشكل معتد غريب :

ـ يجب ألا نقعد .. تعالى لنخرج .

وكنت فى حاجة لان أفعل أى شىء .. وخرجت ، بل هربت .. وكانت الصغيرة تقودنى .. لا أرى الى أين ولا من حولى .. فأنا بلا حول اطلاقا ، مع الفضاء والمطر الذى بدا يهطل .. لكنه لم يكن مطرى ولا مطر أمثالى .. فأين لى منه بالخبز واحمد !؟.. وغص حلقى ودمدمت أعماقى : يا أمطار ؟.. يا أمطار ؟.. يا أمطار ؟؟ ...

ونحن نسير .....

دمع ولا يقين ..

أيامها .. دلفت على غير المألوف .. فشيء ما تسلل ببطء الى اعتيادها بغصة .. يبعث فيه الامر النهائي : الشباب والمتطلبات الخارجية الكبرى ..

وكانت الظروف تمنحها حظوة أن تتركها في البعيد .. نتفياً بهجة صغيرة ، ولكنها كافية ، صنعتها من ثمان عشرة سنة .. دون أن يتسرب اليها الخبر الذى لم يكن فى استطاعته الا أن يصل ، من هنا أو هناك ، خلال تفرعات انبيئة المقتنعة أو المشدوهة .

وفي جل الاماسى ، كانت الحلقة الصغيرة للجارات القريبات تتم . كلهن ينقلن ما طرق سمعهن ، بينما هى والسيدة زينب تستسلمان للحديث والعمل .

ـ استسمحكن .. ان على أن أنجز كل هاته الخياطة

اليوم ، فصاحبها يطلبها .

وانجرفت الابرة والخيوط الحابكة على حافتي القماش ، تلصقان أطرافه الى بعض ، بينما ترنح وجل غير خفيف بين كل الاعين ، في حين همست السعدية بصوت متأمر نافذ الصبر :

ــ ألم تسمعن بالخبر ؟ .

وسوت مريم القماش على بعضه ، بينما كان سمعها يعمل على أن يتابع الحديث .

واستفسرت زينب وقد توقفت ابرتها :

ــ أي خبر .. السكر وغلاؤه ؟

فزفرت السعدية بغير افتعال :

ــ أوف .. ان الامر أكبر . فهو يتعلق بالاكباد ..

ولم تستطع أن توقف في بصرها نظرة انطلقت الى مريم ، بينما انبرت أصوات تستفسر ، فشرحت السعدية :

ــ أن يأخذوا أبناء الناس الى (العسكر) !.

وظلت مريم تائهة عن الخبر في ضجيج الآلة الحائكة ، ولكن سمة الجلسة نبهتها ، فمدت يدها واعانت رجلها على توقيف الدوران المخيط . فسمعت :

ــ العسكر !. للعسكر أبناؤه ، وهل حتى أبناء عموم الناس ؟! .. لا .. لا ..

وطلع في بصر مريم استفسار اكبر ، بينما قالت خديجة في شبه ولولة :

ـ يا ويحى !.. هل نحن فى عهد فرنسا .

فردت السعدية بنفس النبرة المتهالكة على نفسها :

ـ وانما فيما يشتبهه .

فدب صوت مريم وئيدا ، كأنه مقتنع بتصحيحه لخطأ :

ـ ولكن أخى كان قد قال لى : بأن الفرنسيين لم يعودوا يحكمون فى أى جزء من البلاد .

فلم تتراجع السعدية :

ـ لقد تغيرت الاسماء فحسب ، أما الاحكام والمعاملات .. أوف !!.

واستفسرت مريم :

ـ وما تراهم الآن سيفعلون لنا ؟

فقذفت السعدية الخبر ، كما لو أنه لم يسمع به قط :

ـ سيأخذون أبناءنا للجندية .. ولقد قيل لى ان آبناء اناس كثيرين قد أخذوهم ..

ـ أخذوهم !.. كيف ؟...

وظل الاستفسار معلقا يتوجع مع صوتها :

ـ أبناؤنا نحن أو أى أبناء ؟

فتدخلت زينب مجيبة بشىء من التؤدة :

ـ بل كل الأبناء .. من هم فى سن معين .

واتخذ وجهها سمة الالتياع الحقيقى :

ـ حتى ابنى ؟

ـ أبناؤنا جميعا .. كل أبناء الناس .

وصاح صوتها دون أن تعرفه :

ـ ولكن ابنى .. أبدا ..

وتعلقت بها كل الاعين .. كانت الدموع المتألمة قد انفجرت بحرارة مفاجئة بحيث ان زينب ، حاولت أن تقول شيئا ينتشل .. فلم تجد صوتها يقول غير :

ـ لكن ليس الآن ..

ـ ومتى ؟.. من قال هذا أو لماذا ؟.. ألم يعرفوا أنه وحيدى .. من هلك أبوه وهو جنين فى بطنى .. فبقيت أكافح من أجله .. بجهود امرأة وحيدة الى أن أصبح رجلا .. خاصا بى .. لا أبدا ، انهم لن يأخذوه منى . وشهقت ..

وران على الجلسة ألم كبير غير منتظر .. ألم امرأة لم يعرفوا انها تحب ابنها بهذا الشكل . ولكن زينب كانت تعرف كل شىء ، فهى الجارة والصديقة القديمة لمريم التى تزوجت صغيرة ، ولم تلد الا بعد سبع سنوات حيثما كان زوجها قد ودع حياته بشهور .. فقررت الا تكون لغير هذا الولد .. تكافح من أجله الليل وكل النهار ..

ولاجل أن تقول شيئا لعله يهدىء من تأجج النواح ، قالت بمنطق :

ـ ان هذا قانون .. وكلنا نحترم القانون .

فقالت السعدية بعبرات أم :

ـ ومتى كان القانون يخطف الأبناء من أمهاتهم ؟

وأكملت خديجة :

ـ أبناء العائلات .. يا حفيظ .. الى الجيش .. ان هذا لم نسمعه لا من أبنائنا أو أجدادنا !.. ولكن السغدية قالت بادانة :

ـ ولكنه هذا العصر .. عصر النور كما اعتقدنا !

وكان ألم مريم لا زال ينسكب في الصمت ، وزينب تحاول أن تقول شيئا مقنعا يتوافق مع اعتقادها بأن وراء هذا القرار إفادة لا زالت غامضة في الجابنة ، بينما رن جرس الباب ، فهتفت مريم : ولدى .. ولكن غيره قال :

ـ مساء الخير .. المفتاح من فضلـ .. ايه ؟ .. مالك ؟ .. مالكن ؟! ..

كانت السيدة الصغيرة المحترمة في كل العمارة ، والتى تترك أحيانا مفتاح شقتها عند السيدة مريم ليجده زوجها عندما تذهب الى عملها كأستاذة ، هى التى تقـف الآن على المشهد ، تقدمت أكثر ، ولامست كتف السيدة مريم وأعادت الاستفسار .

ـ انهم سيأخذون ابنى !

واجهشت :

ـ من ؟

فقالت السغدية :

ـ أبناءنا ..

ـ انتى لم أفهم .

فتدخلت زينب :

ـ أبناء الناس .. كلهم الى الجندية .. حسب القانون .
فانفعلت السعدية أكثر :
ـ أى قانون هذا !.. انني أكرهه .. قانون هذا دون ذاك !.
وكان جنين صوت خديجة دامعا .
ـ يا لوعتي .. أبناء الناس والعائلات الى الجيش !.
فصاحت السعدية على غير ترقب ، موجهة الكلام الى خديجة :
ـ لا تزعجي نفسك .. ومتى كان أبناء العائلات كغيرهم ! .. لا شيء بعدل .. سوف لا يأخذون الا أبناءنا .. نحن الذين بلا وجاهة أو وساطات . واكفهر وجهها أكثر ، وقد إتجهت نحو زينب :
ـ ومع ذلك تقولين قانون .. أى قانون هو !؟..
فتريثت السيدة الصغيرة بينما خفضت زينب رأسها اجلالا لهاته الأمومة ، ولم تتكلم .
ومن خلال هذا الصمت الذى حدث ، انسكب صوت السيدة الصغيرة ، ومعه اقتناع :
ـ هو قانون حمايتك وحمايتنا .. وحماية الأرض والأجيال يا سيدتي .
واشرأبت اليها بعض الابصار كأنها تستفهم هذا الذى قيل ، بينما كان الصوت يزداد انصهارا :
ـ كلنا أمهات .. والامومة رحمة لا غطرسة .. والابن

ابنك وابن البلاد .. فكيف تتعاظم آنانيتنا لـ ...

فقاطعتها السعدية :

ـ نحن الذين ولدناهم

فردت عنيها :

ـ ولدناهم لنمنحهم حق الحياة الكريمة، لا لأن نستعبدهم بعواطفنا ، فنجعل أنانيتنا سدا بينهم وبين الحياة الحقة الكريمة. تصورى أن أما تستعبد ابنها لعواطفها وتجعله ينمو فى محيط ضيق : محيط العواطف الشوهاء للام المتطرفة ، فكيف سيكون .. وأية ملامح ستكون ملامحه ؟.. بل أى حقد سيحقد على أمه ونفسه حينما يحتاج الى نفسه ليكون رجلا شريفا فلا يستطيع .

فقالت مريم بتمهل مأخوذ بما فيه الكفاية :

ـ ولكنهم أبناؤنا ..

ـ نعم ، ابناؤنا لا عبيدنا .. فبأى حق نحرمهم من طابع عصرهم ، لان نجعلهم مستعبدين لاقتناعات غير اقتناعاتهم ، لنرضى نحن فقط ، أمومتنا الشوهاء .

فتدخلت السعدية بانفعال آثاره الكلام الاخير :

ـ وهل استشارونا .. هل استشاروهم ؟!.. اننا نحبهم ولا نستعبدهم ..

ـ هذه الاستشارة واقعة .. حينما انبثق هذا القانون عن الرغبة الجماعية للأمة ، التى تريد لأبنائها تدريبا حقيقيا لا هامشيا كما نسمع ...

فطلع صوت مريم دون انتظار وكان يدمع :

ـ ولكن للامة كل الناس . وليس لى غير ابنتى .

ـ وأيضا لكل الناس عواطفهم .. فكل منهم يتعلق بأبنائه .. ولكن الناس يفهمون ، ويجب أن يفهموا ، ان عواطفهم يجب أن تتحرر من الفردية وان تندرج فى الكيان العام لهذا الوطن الكبير .

وبغتة عثرت زينب على ما كانت تريده ، فتفوهت بصوت مؤيد :

ـ القضية قضية الوطن ..

فأكدت السيدة الصغيرة :

ـ قضية غده وقضية الانسان فيه .. قضية خلق انسان حقيقى فى وطن غير مقتطع الاطراف ، غير مهدد .. فنحن أيضا حتى نحن .. كلنا .. جميع الناس .. مسؤولون بشكل من الأشكال عن الحالة والأوضاع .. ودموعنا كأمهات تعتبر خيانة لقضية أكبر .. فهل ترضين أن نواجه الاعتداءات واستعمار الأطراف بغير الرجال .. بأطفال لم يتحرروا ، ولو أنهم رجال ، من أمهاتهم ؟! .

وسألت زينب باهتمام :

ـ الاعتداءات ؟

فأفصحت السيدة الصغيرة :

ـ كل وطن لا يملك أطرافه ، فهو مهدد .. عزته غير مكتملة ، ورجالة غير حقيقيين . لأن أمهاتهم (وغيرهن) لم

يعرفن بعد ، كيف ينشئن أبناءهن خارج الحيز الضيق للعواطف الخاطئة ، ولو كانت كل الامهات مثلنا (وأشارت الى الجلسة) لامتلكت أعتاب ديارنا ونحن لا نرى غير ذلك الابن.. ابننا نحن، دون التهديد المصلت على وجوده ووجودنا .

وقالت السعدية بدفاع : ولماذا لم نحرر الأراضى الشرقية فى تلك الحرب .. لقد كان أخى يحتج فى غضب : مليون وأربعمائة ألف كيلمتر مربع ستستمر ضائعة بتوقيف الحرب ، فمن أوقفها بعد أن وقع خطأ اشعالها ؟؟

ولم يتحرك فم السيدة الصغيرة ؛ فانتصرت السعدية :

ـ أجيبى

ـ ....

ـ فهاجمت :

ـ أخى كان يقول : ضاع الرجال أيضا ، وضاع المال ، فماذا تقولين أنت .. من جعل تلك الحرب لا تنتصر ؟؟

فوجدت السيدة الصغيرة نفسها تقول : هذه مسألة أخرى .. لكن التجنيد فى حد ذاته فى صالح اعداد الفرد كمواطن .

ولكن السعدية لم تهادن : ولكنه غير حقيقى .

وتدخل صوت زينب :

ـ أنت صغيرة ، وأبناؤك غير مهددين .

فاتخذ صوت السيدة الصغيرة طابع التأثر والانفلات :

ـ بل ان ذلك من غصصى .. فكم كنت أستطيع أن

اتطابق مع أفكارى ومتطلبات الواقــع لو أن أبنائى كبار .
لأطمئن الى أننى قد أسهمت فى خلق مواطنين يستطيعون أن
يكونوا عند احتياجات الوطن : يحققون اه ما يلزمه للنصر
الاخير .

ودب صوت مريم ولم يخف مما يثقله :

ـ ولكن كيف تستطيع أم أن تفقد وحيدها ؟!

ـ انها لا تفقده .. ولكنها تنشئه تنشئة افضل . ثم
انك أنت ، أم الولد الوحيد ، ألم تكن حياتك سلسلة من
التضحيات .. فلماذا لا تملكين شجاعة اتمام ما سرت فيه :
فمن أجل ولدك نفسه ، من أجل أن تعطيه وجهه غير الناشز
بين أبناء الوطن أجمعهم ، عليــك أن تنسى نفسك قليلا ،
وتفكرى بأنك من وقت ما ولدته ، اصبحت ملكا له حقا ..
تعملين من أجل تحقيق الحياة عبره .. كسائر من يلد ، فى أنه
خادم للحياة وللمستقبل ، دون أن يطلب من الابناء :
المستقبل .. أن يكون فى خدمة الماضى . فالحياة لا تفعل غير
أن تسير . ومن أجل هاته الحتمية ، يجب أن نتوافق معها حتى
لا نضحى بأبنائنا وأنفسنا لئلا نحقق غير الركود .

وصمتت ، وكان صمتها غير صامت فى الاذهان ،
وقالت زينب :

ـ خيانة ألا تكون الام هكذا .

فردت السيدة الصغيرة :

ـ وانه الوفاء ، أن تتجاوز أية أم عواطفها ، من أجل

ابنها والوطن .

وفاجأت السبعدية :

ـ أنت كأخى متعلمة ، ومن الوفاء أن تقولى ما يقوله .

فتضاربت الأعين ببعضها ، ولكنها لم تع كلها ما يجب ، فانحدرت ، بينما عينا السيدة الصغيرة فى اضطراب ..

... وبعد برهة .. عاد أزيز آلة الخياطة ببطء .. ودمعتان لمريم تحترقان بصمت .. وقلب كبير قد إنفتح يغمره شك ويقين ، بينما ابتعدت السعدية ، بلا يقين .

المساء الاخير

ـ يا لعواطفى !...

وتخلى صوتها عن طابع الادانة ، وهمس باستدراك :
لقد حاولت أن أضبطها .. لكن يبقى ، هل أحسنت الاختيار ؟.

وطنت على أرنبة أنفها وأفكارها ذبذبة حشرة مجنحة ، فحركت يدها تطردها بارتخاء ، ثم حملقت فى السلك الرقيق الممزق الذى كان يمنع من قبل ، أية ذبابة من التطفل ، وركزت عليه انتباهها : لم تبق الآن الا هاته القضبان الغليظة العارية .. كعظامى .. كهيكل لم يعد يستطيع أن يصون شيئا أو أحدا .. حتى ابنتى .. آه ابنتى : كومة الانفعالات الساحقة المبذورة فى قعر هذا الكيان الجاف .

وأتاها نباح خافت قريب .. انه الكلب وراء النافذة .. جارها الوحيد . وابنتها ؟ أوف ، لم التذكر ؟ ورد الصدى

الحقيقى فى أعماقها : وهل فكرت بعد أبيها فى سواها ! لكن من يفهم ؟.

وأحسست جهدا جديدا ينزرع فى الياف عضلاتها ، فودت أن تتحامل بواسطته ، لان تلمس الحياة أية لمسة ، فهى دائما ، وبطريقتها الخاصة ، على وفاق معها ، تحقق صلة ما بالناس والاشياء . وفكرت :

ـ لو حدث اننى كنت قد وعيت جزم عواطفى ، لكنت قد اتخذت نهجا يختلف .. ولكنه الماضى .. انسحاقه تحت أظلاف بيئة خانقة ، فتح فى الانتقال الى غيره ، مسام النشوة .. فزرعت أيامى تحت موطىء أقدامه .. أمهد له ما اعتقدت أنه يستحقه : حياة رخية منداة ببذل متطرف لامرأة . فأصبح يتطاوس بفتنة .. زوجى .. ليشحن أيامه بعبق احتراقى ، أنا المرأة التى لم تعرف قط كيف تحس ذاتها ، فتكف حينا عن جعل عواطفها وحقوقها وعمرها يتآكل على عتبة رجولة لحظة :

ـ سوف أغيب بعض الايام .. ان لدى عملا .

وكنت أعرف عمله الاوحد .. وهو ألا عمل له .

ـ لقد كانت ليلتنا حمراء .

لكن هذا العالم ماذا يقبل ؟!

ـ ان أيامى لى ، وانا سيدها .

وهل سألتك مرة يا سيدى ، لحظة من تلك الايام . فأنا بلا عمر .. بلا فهم .. بلا أى ادراك حقيقى . فما اللين وما التماسك .. ما الحب وما الرجاء .. ما الحزم وما العطاء ،

إن حياتى بلا طابع .. لانكم أنتم والمرض سرقتم سمتى ... فما ذا بقى اذن ؟

ولاحت لها تجاويف خديها ، وذلك الامتقاع المصفـر المعربد فوق ثنايا كانت قبل عشرين سنة تملك رواءها .. ولم تتنهد ، بل لامست مسند أريكة واعتمدت عليه ، وحملت نفسها خارج الباب . فهى كعهدها تثقن ذلك التماس بينها وبين ما هو خارجى ، لكنها الآن لا تعرف كيف ؟

وضغطت شحنات هوائية على تنفسها ، فتأثرت .. فهى لم تعد تتحمل هذا التواصل الصميمى كيانا أو داخليا .. فالطب يقول خلال أعوام المرض الطويلة بيأس : انك تعيشين!. فتعلم ان هذا هو آخر ما يمكن أن ينتج عن الطب هنا ، حيث انتهى الى عجزه أمام اتساع جعبة قلبها . هكذا كان الطب ، أما أعماقها ، ففيها بذرة حيرة رعناء : الخير والشر .. الصفاء والدهاء .. الحزم والاستسلام .. الأيام والليالى .. زوجها وابنتها .. طفولتها وشبابها .. وهل هناك ما هو واضح من الاول ؟ . الكلب ينبح ولا أحد فى الخارج ، والعالم حتى هو بلا أحد ، والزمن الى أين تراه الآن يسير ؟...

وملكها سعال خفيف ، ولكنه مجهد أنتج توترا هاما بين الجدع وقضبان صدر أجوف . فاقتعدت العتبة وأسندت رأسها الى سارية الممر ، وأسلمت وجهها لكفها المحموم .. وظلت تستريح حتى لامسها زغب متحرك للكلب الصغير .. فأرخت قبضتها عن وجهها فى لمسة اعتراف لحيوان أمين . ولكنها

تراجعت :

ـ وما جدوى هذا .. ألسنت محتارة ؟ العطف أم الحزم .. زوجي أم ابنتي ؟. واستعادت ذلك الجهد الفجائي المندلع كالبصيص الاخير ، وتذكرت فجأة ، وبلا أي حنق ، اهتمامها الأسبق : كتاب .. أي حضور محشو بين تلافيف كلمات محمومة .

ومن أجله .. من أجل ذلك القطاع من الحياة الذى لا يكذب .. أو هكذا ظنت قبل الآن .. قبل أن يجعل من حياتها كذبة كبيرة .. ضغطت كفها بالارض وأتمت وقفتها ، لان القراءة وسط هذا الظل المخملي لاصيل مسحور فاجأها كهوس ملحاح لم تعرف كيف تقاومه ، مع أنها من مدة ، انقطعت سوى عن بعض المجلات الخفيفة التى تتلف بين سطورها انهيار بدن وشيئا من الزمن وكثيرا من الضيق ..

فتحت درجا يحتفظ بصفين من كتب يظهر أن لها عمرا محترما ، وتمتمت : هكذا كنت أريد منه أن يفعل .. ان يطهر عمره بين النصاعة من خلال سطورها .. ولكنه ، وأيضا ابنته ، لم يفهما .

وهل فهمت أنا ؟

وسلت كتابا من بين الصفين المنتظمين واستمرت كما لو أنها تهذى : لم أجعله رجلا ، لان ذهنيات غير أرضية انفلتت من بين سطور الكتب وزكت بمبالغة بذور الخير فى أعماقى ، فعلمت نفسى ألا أقف أبدا بين أحد وبين ما يختاره .. ولقد

اختار روجى من أحببته بعواطف أنثى كانت ضحية وضع مغلق .. اختار حينما لم يبق أمامه من يدوسه أن يدوس نفسه ...

وفعل ثم تنبهت الى أصابعها التى تلاعبت بأوراق عدة، فجمعتها بما يشبه الضجر اليائس ، ورمت بالكتاب على الوجه المتآكل للبساط ، وتداعت على جانب السرير وابتلعت قطرة ماء ، وتطلعت للبعيد .. كانت كمن يثبت حدقتيه على شريط يثقنه ، بينما تسجيل كل ما جرى يتحدث من الداخل : الانانى ، سحق نفسه فسحق عواطفى .. أتخم دعارته حتى الثمالة .. حتى لم يبق فى الاحتمال أى مزيد غير الانحدار .. فانحدر ، وكان آنذاك يصيح :

ـ قولى اى شىء ، أو افعلى أمرا .

ولكن الخير .. أصوات المثل من صفوف الكتب كانت تتدخل ، فأردد على مسمعه قاموسى ، فيهتاج :

ـ ان عالم الأوهام والتجريد لن أدخله .

ـ ولكنه يتصل بدنيا الناس .

ولم يقتنع :

ـ ناس القبور والتاريخ .

وهل أنا منهم ؟ اننى أحيا وعندى ذخيرة من انصفاء وكيف عالمك لا يقبلنى ؟ أيها الرجل .. لماذا تبتعد .. تهرب ، لتسحق حياتك وشبابك بين العربدة والسيارة والشجر ..

.. وأفقت انا ...

.. كل شيء يجب أن يتبدل . ألم يتدخل الموت ، فشيء ما من هاته الاعتقادات .. اعتقاداتي .. يجب ألا تجرم من جديد. وقررت : الخير الحقيقي ان أكون حازمة ، وأن أخفي الوجه الفاتك لعواطفي . العواطف .. الفتك .. الحزم .. الاختفاء والعواطف المتزنة .. كل ذلك ماذا أنتج ؟.

قالت ابنتي باحتجاج :

ـ انك تعاملينني بقسوة .. أنت لا تحبينني .. فلو كان أبي حيا ...

فتصادت أعماقي بصعوت : انني أعبدك .. ولكني لا أريد ان أقتلك بعبادتي .

ولم أتوان .. واصلت بلا انهاك وبقدر لا بأس به من الشدة ، محاولة غرس ما اعتقدت أنه الوسيلة الصالحة لتحقيق الصلات ، ولكنها بجفاء لا يذعن ، تقابلني :

ـ انني أعيش في صحراء .. فكيف يتحمل المرء هذا اليتم المزدوج !.

تقول هذا ، بينما أكون أنا ، أقبر العواطف الهادرة للمرأة الام .. وما يمكن أن يظهر مني كتصرفات طائعة للبنت الفريدة ، وبجهد ساحق أغلف كل غليان حبي الارعن ، في المعاملة الباردة والشدة المتعمدة .. لتكون ابنتي غير أبيها .. صالحة بالعواطف المتزنة للام الحازمة .

ولكني أخيرا !... وغامت عيناها .. وغشيهما دمع حقيقي، أخيرا : ضعفي وتمردها . صاحت بي .

ـ لن أتحمل .

ومع الايام :

ـ هذا الجو الموبوء .. المرض والجذب العاطفى !...

وبسبب الايام واحتجاجى على تغيباتها :

ـ لن أعود .

ولم تعد أبدا .. لا استجابة لبحثى أو احتراق عواطفى. فهى كأبيها .. وأمها كزوجه .. لا تستطيع الا أن تضيعهما بهذا المفهوم غير الواقعى الذى خذ لها به كتاب من الكتب .. فاحتارت بين السبل ولم تنجح فى أن تتعامل مع الواقع أو أن تأخذ بأى اختيار .

وصاح الكلب صيحات متعددة ، فحاولت أن تتطلع من النافذة .. غير ان الجهد الطارىء الذى انزرع فى ضعفها قبل حين قد انطفأ . فهناك الذكرى وشظايا امرأة لا تهرب من فشلها .

وأسقطت رأسها بتخاذل على المخدة وتمنت أن تكون الخادمة قد أعادها حنان ما ، فلم تتم عطلتها الاسبوعية .. أو ابن العم البعيد الذى يزورها الحين اثر الحين لتسيير دخلها الذى تتعيش فيه ... ولكن النباح همد .. ولم تعقبه أية حركة حقيقية سوى خشخشة بعيدة للكلب الذى كان فى جذل .

وخشيت أن يكون هناك لص ، فسرت فى جسدها رعدة خفيفة ولكنها لم تدم : ليسرق ما يشاء . فلم يفضل بعد شىء سوى هذا الطراز المتداعى لحياة كانت ولم تعد تكون . وحركت

جهدها الاخير .. وصبت من القنينة دفقة تفوق تحديد الطبيب: عشرون نقطة فى جرعة ماء ، وحملت بارتعاش الكأس الى شفتيها المبيضتين .. وعاد الكلب ينبح .. وسال المشروب فى حلقها وعلى شفتيها .. وفكرت : لعلها اللحظة الاخيرة ، "لم يقل الطبيب لابن عمى : ستنطفىء بلا ترقب .. بسرعة . ولكنها استبعدتها مع أنها تحلم بها كنهاية مرتقبة لمرض ملحاح . ونبح الكلب أيضا .. وأحست بتخدير قاس فى بدنها وبذلك الضغط الفظيع يركب عضلات قلبها .. فدمدمت : قلبى . وحاولت ان تزيد قطرات فى الجرعة ولكن حركة يدها تخاذلت بينما ادراكها لم يتخاذل .. ظل متيقظا ومرتبطا بهياكل الماضى وأشياء الحاضر : نباح الكلب المتقطع .. وظل الشجرة الوحيدة .. وهاته العتمة .. وليس معها غير اليأس والذكرى وما يمكن أن يحدث لها مما تنتظره : الموت .. لكن ــ كيف أموت بلا أى شىء !.

وأحست بغيمة كبيرة تحاول أن تلفها .. غيمة ليست من جنس الغيوم .. ولكن شيئا فيها يقاوم .. والكلب قد عاد للنباح .. وخطوات غير ثقيلة تسمع .. والخوف لم يعد يهمها.. والكلب يجرى وصياحه يزداد .. وحالات المفاجأة قد تبخرت .. وعضلات القلب تتقلص بعنف .. والدفء فى بعض أطرافها قد همد .. وهول ما يكشر فى الخفاء .. والنهاية قد جاءت ساعتها ... وصيحة عذبة مرتعشة مباغتة تعلو :

ــ ماما ؟..

.. ماما ! .. وشلالات حنان تطفر من ذلك القلب المتداعى .. ويدها تحتضن ببقايا توتها الرأس العائد .. والعينان تسكبان ماء الحياة دفعة .. وهمس فاتر متقطع محموم يعم المكان والزمن :

حبيبـ .. بنتى ، ولو .. مت .. فان ـ الخير ـ بخير ـ حتى ولو أنه سرق .. أيامى .. وكل أمسى ، فها أنت .. الآن ـ معى .. فالعالم .. بخير .. والشىء ـ الحقيقى ـ لا ـ يمكن ـ أن يموت .. أبدا . . . .

وفى تلك اللحظة ، وفى نهاية الأفق ، احتجز الليل وليس الى الأبد ، آخر دقة زمنية فى ذلـك المساء ، فـدوت صرخة احتياج محروقة بالألم :

ـ لا .. لا ، لا تموتى : أمى ؟ . . .

العقد يحتضر

العقد .. ودكان زمان .. وتلك العيون .. وهاته الاهتزازات : ان ذلك يدق عظامى ! قـال الطبيب : لا مرض .. فماذا يبقى اذا ؟. وتقلب بتمهل وأجاب : يبقى شىء .. شـىء أكيـد .. أنا أعرف والطبيب لا يعرف .. ذلك هو من أنا .. ما أردته من نفسى وأى وجه اخترتـه . وراوغ نفسه حيث أطلق بصره ليعانق ذكرى مؤطرة .. كانت صورته المطبوعة بملامح شفافة ازدهت بشكل فجائى ذات عام ، فسمرها فى هاته الصورة التى لا توقظ فى حناياه غـير أمجاد محدثة خلقها لهاته الاسرة

.. قال أبوه .. وكان الصوت آنذاك منطلقا من ماض مرمم بلحود قبر :

ـ يا بنى .. ليس غير الستر ، به نعيش ، ونحن راضون .
كانت الصورة تتكلم .. صورته هو ، وكان الصوت ، صوت أبيه .. صوت من هم قبل أبيه .. قانون الأسرة ودستورها :
ـ بالقناعة نحيا فى رضى .

وزمجر : ولم كل هذا الآن ؟! وسكب فى حلقه جرعة مثلجة ، وتمعن أكثر .. ان الذكريات تنفع .. دائما تنفع . وقال صوت الصورة المنطلق من بعد غائر :

ـ ليس دائما . وتنبه : انها ملاحقة مصرة . ثم خبط يده على حافة السرير بشكل متخاذل ونادى :

ـ ليلى .. ليلى ؟؟ افتحى المذياع .

وغرس بصره بين مفاتيحه وفى الاصابع ، بينما قالت ليلى :

ـ الاذاعة لا تعمل فى الصباح .. أأضع لك احدى قطعك الموسيقية المفضلة فى الحاكى .

وزعق .. كانت نظرته لا زالت هناك :

ـ لا ، اتركيه هو .. يكفى هذا الهدير .

فحملقت فيه ، وخفضت من الضجيج الهادر ، وقالت بصوت خائف :

ـ هنا قطعة جاهزة ، أأديرها ؟.

فتحرك رأسه نفيا ، واستسلم تنبهه كليـا للهدير . وقالت ليلى :

ـ بابا .. ما بك ، أأستدعى الطبيب أيضا ؟.

واختلط كل شىء .. قولها ، والعواء الاصم وذلك الضعوت العميق الذى ينبعث من مكان ما :

ـ الذكريات .. ادانة الماضى ووجه الحاضر ، وكل ظرف غير نزيه يحمل لعنته : أية ذكرى منه .

وصاح بها :

ـ أقفلى الاصوات

وفزعت ، فردد : ـ هذا . وأشار الى المذياع .

ولكن الاخرى بقيت بشكل متداخل ! انه جهد سنين .. وأخى يريد أن يشترى المعرفة .. هذا جوهر نفيس .. أنت ابنتى .. وهاته صفقة رابحة .. ان ندرته تزيد ثمنه ارتفاعاً .. أنصحك . أثق .. جهد ستنين .. جهد امرأة أخوها يريد أن يشترى انمعرفة .. والذكريات تقتل .. وأسرتنا كانت سعيدة بالقناعة .. وهل تموت الاصوات ؟ وصرخ :

ـ لا صوت انطفأ ، فهل يملك الطب أن يخرسها : فى وخارجى ؟

وخبط جبهته ، ثم تمعن فى لون غطائه .. كان احمر بلون جنايته ، وقال : هل الاشياء تتظافر لخلق حالة ام نحن الذين نمنحها هذا التظافر .. دورها ونوعية استجابتها للاحوال الخارجية ؟

ثم تأكد : كل شىء منطلق منى ، اننى وكل ما حولى ما اردته : هذا الوجه البرىء المعفر .. وهل يملك الطب أن يتدخل ؟! وقام .. سار بين الارائك يتمهل ، وفتح النافذة

على العالم الخارجى وأطل .. ولكنه لم يغادر أعماقه .

أخذ تيار الهواء يمرح فى فسحة القاعة ، فخبط الابواب والنافذة وخنق التيار .. كان كعهده ، لا يتصل بغير ربحه .. فليس هنالك أبدا ما هو خارجى فى حياته : حتى مرضه .. فهو نادر .. ليس كمرض الكثرة ، ولقد تفطن : ألم اسر نحو ما فضلته .. بلا شبه بالاسرة أو غيرى .

وتلوى فى العتمة خيط ناصع وتفكك ، فابطحت حباته على فسحة الغرفة كتلكم العيون .. كمآت من عيون . ككل ادانة عاجزة .. كمظلمة بلا نصير .. كحكمة خالدة انجزها غير البشر .. قوم بلا وصايا ، ثم حكموا ، فانطلقت العيون .. النظرة فيها .. حكم عادل ، ينفذ : جنون .

وجحظت عيناه .. كانت العيون وحبات العقد وأوهام زمان .. كل ذلك يحكى قصة حياة : رجل بلا ماض .. فاسرته بلا أى رصيد سوى القناعة ، وكانت تعيش تستسلم لبؤسها بتواكل . وقرر : سأعمل شيئا .. ان حياتى يجب ان تتكامل خارج مألوف أسرتى .. فانا سيدها الذى أصتنع منها ما اختاره .. فالعالم لم يعد يقف عند تركيباته المثلى .. وتقييماته السحابية .

✪ ✪ ✪

ومن ذلك الوقت .. تغير كل شىء : جهده ووجهتهوأسلوب عمله . فالامتصاص أغمض كل منفذ على حياته ، فانحبك فيها مصاص جهود الآخرين ، الى أن وقفت بجانبه :

ـ أهلا !.. ابنة حينا كيف الاحوال ؟.

وأفصحت :

ـ هذه جهود سنين .. التجأت اليك أريد أن أعرف كيف أزكيها .. ان متطلباتي وأسرتى نتطلب منى تنمية صالحة لها .

ـ أهلا بك .. اننى فى الخدمة : ألست منا ، فكلنا ننتسب لدرب واحد ، خذى .. انظرى الى هذا العقد .. انه نادر .. أنفس ما فى السوق .. بلا مثيل . ثمنه لا يحدد .. وخدمة لك فانني أريده لك بالذات

ـ ولكن هذه أشياء ...

ـ لا ، لا .. لا تقولى شيئا .. ان الذهب يتعرض لاهتزازات فى الاثمنة ، بخلاف الجوهر الحر القديم فان قيمته ترتفع مع الزمن .

وفكرت :

ـ ولكنى فى الحقيقة اريد شيئا آخر ، و ..

فقاطعها وعيناه تبرقان :

ـ ماذا ؟.. أتريدين غيره ؟.. لا شئ غير الجوهر .

فتمهلت : اننى لا أريد أن أرمى بارث الأسرة وجهدى من أجل جوهر أو غيره .. ولكنى ارنو الى ظروف أريد أن أشتريها .. فتلك الظروف .. فرصتنا لتحقيق الاهم ، هى التى أريد ان ادخر لها هذا المال .

وتحلبت شفتاه وهو يتلون :

ـ ومن اجل ذلك أعرض عليك هذا العقد .. فلكي تطمئني فانني أقترح عليك : بعد سنة يمكن أن تبيعه بضعف ثمنه ثلاث مرات .. وانني أنا الذى سأشتريه منك .

ـ أنت ؟! . ولكن لما ذا تبيعه ...

فقاطعها :

ـ لولا أنني في ضيق مالي لكنت قد ادخرته .. ولكنها الظروف . وابتسم : والظروف والحمد لله هي التي أرسلتك لتكوني صاحبة هاته الحظوة .. ألست كابنتي ؟!

وأخذته بين أصابع دون خبرة ، بينما أردف هو :

ـ انه لائق .. لائق جدا .. ألم تقصديني ؟!

فتمعنت فيه وقالت بلهجة مركزة :

ـ انني أثق فيك .

فقاطعها :

ـ والله ولو كانت ابنتي فانني لا ابيعه لها بهذا الثمن ، ولكن لانك أنت .. من نعرف فيك وفي أخيك تطلعات خاصة ، فانك تستحقين كل مكرمة .

وتم كل شيء .. فقد كان رائدا ناجحا توغل في مجاهل جيوبها وأعماقها حتى اعترفت :

ـ أخي يريد ان يمتلك المعرفة ، ولاتمام مشروعاته الدراسية ندخر هذا .

فصاح :

ـ بوركت وأسرتك .

✪ ✪ ✪

ولم يركن الزمن لهمود .. ظلت ذبذباته تتجاوز بعضها . ومن خلالها كان هو يحقق قفزاته .. فأكثر من الادعاءات :

انتسب لهيئة وبنى على ماضيها ومن حاضرها ما يريد أن ينجزه .. وأخيرا وصل : رئيس الغرفة التجارية بالمدينة العريقة .

وآنذاك تنفس : أية لذة أن يعرف المرء كيف يتراوغ مع الظروف وفضيلة الآخرين ، ليعلن اسمه : أحمد الأمين رئيس الغرفة التجارية ! وتنحنح .. والى الآن لا زال يتذكر نحنحته .. كانت ذات صوت رخيم يطن فى جـــوفها خواء أجداده وعجزهم عن ان يحققوا اى اسم او ان يرفعوه فى مدينة العراقة والجهود .

ومن جديد ، حدث الشىء نفسه .. التامت النصاعة وانفرطت الى حبات متلألئة فى العتمة الخفيفة ، فتلوى شىء كبير فى أعماقه وهتف :

أى جنون هذا ؟!

وجحظت عيناه ، كانتا تنغرسان فى الحبيبات الناصعة الغير المستقرة فى مكان ، وقال بصوت حقيقى : لم عاندت يقينى فى أننى ظالم ، اختلست جهود امرأة أخوها يريد ان يشترى المعرفة .

قالت لى بتأنيب وشكوى : أخرجت العقد الى السوق .. فلقد حل وقت احتياجه لتحصيل نوع المعرفة ، لكنه مغشوش

.. لم يرتفع ثمنه كما ادعيت الى المليون والنصف ، بل انخفض الى ما لا يمكن أن يتصور .. الى سبعين ألف فرنك !!

.. ونحن فى احتياج اليه ، فأخى ينتظر .

فقلت لها بصلف من يركن الى مركزه : حجتك واهية .. والمحاكم أمامك .

وكنت أعرف أن كل المرافق معى .. فمشاريعى التجارية وعلاقاتى تسد كل الأفواه ، فقالت لى بغضب مكبوت الى حد ما :

ـ الجميع يشهد بتزويره .. ونحن من حى واحد ، ولا يليق أن نصل الى المحاكم .

فهزأت بصوت لا زلت أسمعه : أنت حرة .

ولم يكن صوتى على حقيقته .. فلا حرية هناك .. فأنا المسيطر على من يمكن أن ينجز حريتها .. كل أحد ، وكل مرفق او دائرة .

وظلت تبحث .. وكان العالم من خلفها يغدر بها ، ولوحدى كنت اعلم كل شىء : أخوها مثقف طموح يريد بالعقد أن يحقق مستقبله .. ولكنى أتلفته له ، فأتلفتنى عينان : ادانة جريئة لحكم حقيقى ، قالتا قبل ان ينطق الفم : نذل

وانهالت الاصوات بالنذالة من كل صوب فى دماغه .. كان كل شىء يتكلم .. والعينان تبرقان فى الفسحة .. والحبيبات قد انفلقت من العقد وعادت تتركب ثم تنفلق ..

والحسرات تتراكم في الاعماق .. والذكريات تقول : حدث بسيط ينجز كل هذا الدوار ! فكل ما عداه ، بقية النهب والخطف والمراوغات لم تخلف ندما ، الا هذا .. الا العقـد المغشوش الذى لا يتعدى ثمنه ربح شهر من أعوامى ، فانه عشش من خلال الشهور وترنيمة الساعة ودوران الأصباح والاماسي في دماغي فكاد يتلفه . ايه .. انها امرأة .. شخص يثق .. يرهن كل شيء للمعرفة .. حاولت أن ترد الامور الى نصابها عن طريق العدل فاصطدمت : قال نقيب المجوهرات :

— لا اعرفك ولا يمكن ان اتدخل وأعلن المحامون : انه صديق وكيف يمكن أن نكون في غير صفه . اما المشرف على المعاملات المغشوشة فلم يتكلم ، وتكلم غيره عوضه ، بشكل خفى ولكنه حقيقي : لا عدالة .

وأضاف : وكان كل ذلك يقنعنى ويرضى فى داخلى حقدا على سنوات عجاف قضاها اجدادى ، فلادقاعهم كنت آنتقم ، لأننى لست غير الابن الشرعى لهاته الحقبة : على أن أكسب بأى طريقة كانت ، ليسمع الآخرون اسمى . ولكن العينين . عينيها .. النظرة فيهما .. جلسة المحاكمة وصك الاتهام وقرار الحكم فى النظرة : نذل .. نذل .. نذل والعقد وحباته .. ومستقبل مشروع وشراء المعرفة .. ويأسهم .. وفشـــل بحثى : لقد ارتحلوا ، ولم أعثر على مقرهم لاغسل نفسى وأدغالها من النظرة .. من الحكم .. من العقد الذى ما يفتأ يحتضر ومن صوتها : نذل .

وخبط كفه بجبهته وغرس أصابعه بين أسنانه وتلعثم : أواه .. ان عمرى فى سنينه هاته قد أطرته أنثى بحكمها ، وأحاطت سياجه بعقد لا يفتأ يتحرك .. هنا وهنالك وفى أعماقى .. ينفرط وينحبك .. لايموت بدا .. كأنه قدر أيامى .. يسير بها نحو نهايتها كاحتضارها الموقوت .

ولم يتوقف ، استل يده من خمول وجعها وخطف صورته المعلقة وخبطها بالارض ، فتناثرت أجزاء الاطار لامعة منجرفة فى الاركان ، فعاد الى ملامح الصورة فى داخله .. حالة التناثر الذى رافق سنواته الاخيرة .. ومعها كان صوت القدم يتكلم :

– الربح الحلال لا يدمر .

فرد عليه هو : والآن كيف السبيل ؟.. فمن خلال ربحى ضاعت جهود شخص ومعرفته ، وكيف أصلح مافات ، ليموت العقد وتحيا العدالة وتسلم أسرة .. اننى أخاف من وجهى .. هذا الذى عدت به من رحلة سنين ، أتخمتها بالمدخول فتراكم المدخول على ملامحى وضيعها .

ومس وجهه بأصابع محمومة ، فضاعت بين حرقتها قدرته على اللمس ، فغرس أظافره لعله يلمس شيئا ، ولكنه تألم ، فزعق ، ولم يتوقف ، فزمجر وهو يمعن فى خنق الألم بالزيادة فيه :

ليمت العقد .. والدماء تسيل . وليحيا الصدق .. والاصابع تزداد انغراسا . وتلكم النظرة أخافها .. ومن يقتل فى أعماقى الجوهر والحكم : ثم غاب ..

.. ومن بين تلافيف غيبوبته بلغه همسه : من يقتل العقد ويغسل وجهى ؟

فقال الطبيب : انه يعانى من حالة خفية .

فتحادل على ادراكه وأجابه :

ــ حالة الاحتضار الذى لا يموت ..

فأجابه الطبيب بنبرة أمل :

ــ الحياة علاج .

فصاح بجهده الاخير :

ــ لقد عكرتها ، أنا المسؤول .. لقد اخترت .. فلم تكن حياتى الا حالة من الاحتضار .. وهو الآن فى أعماقى وصلبى.. عقد لا يموت .

ثم صمت ..

النار والاختيار

النهار كالليل ، مثقل بحمل لم تستطع ان تهمله ، فهو هناك ، جد كثيف ، جد خانق ، تقـوله الاشيـاء والاحاديث ووجوه الناس ودولاب العمل البطيء الذى يتلف الحياة قبل أن يزكيها . وفكرت : تمنيت لو اننى لم انفتح على غير عالم الاعماق ، حيث كان وجودى مشروعا مشكوكا فيه

وعند العتبة اسفسترت :

ـ فى أية ساعة ستسافران ؟

فتطلعت عيناه لوقفتها واجاب :

ـ فى السادسة صباحا . ثم اردف :

ـ لقد تاخر الوقت ، يجب ان ننام . فتمتمت هى : كما هو متأخر دائما وابدا فى حدود جغرافية معينة . ثم افصحت ٠ سنأسافر معكما الى الرباط . عندى شغل هناك .

ـ والعمل ؟!

كانت لهجته هاربة ، فاجابت :

ـ حتى هناك عمل

فسلمت زوجة ابن عمها : اختها ، عينيها من الشاشة الصغيرة ، وقالت ترحب :

ـ فرصة طيبة . ثم نكثت : ولماذا الى الرباط بالاخص ! هل نعتقده بريق امل ؟. وابتسمت

كانت آختها تعود الى المـــوضوع الذى ملأ الشهور ، شهورهم بالاخص ، لتظل هى مع الموصوع الآخر ، لوحدها ، دون ان يستطيع احد ان يواكبها . فهـم جميعـا يكتفون : مصيبة .. ثم نسنير الايام ...

وقال :

ـ هلا تتابعين معنا الى البيضاء ؟. ففكرت : لن يكون معنا آنذاك غير نفس الموضوع ، وآنا لست أدرى .

ثم اجابت :

ـ لا يمكن .

لماذا ؟

ـ العمل كما تعرف

فتدخلت امها وقد تراجعت بالموضوع :

ـ نعم ، لقد قالت ذلك قبل ايام لابيها . ثم ضغطت على يد ابنتها الكبرى وسمعتها تهمس لها : اسكتى .. فلعلها تصادفه ...

ولم تنته .. فلقد كان الافراط في الغربة الذى اتخذته ليلى سبيلا لتجاوز اللحظات ، اشد ضغطا على الام ..
فلاحظت :
ـ أترين ؟ كيف هي لا ترافقنا .. السهرة في الشاشة وهي تطل في الاخير ، ثم تنسحب !
فذكرت الاخ متامها :
ـ ولكنها طبيعتها يا أمي .. لا تنسى ، انها غالبا ما تركن لحالات ابتعاد .
فلم توافق الام :
ـ والى متى والحالة هكذا ! اننا اهلها ، فنحن ملزمون بتقبل هاته الحالات ، لكن الزوج المنتظر ؟ .. خصوصا وانه من لايمكن ان يصبر على هاته التقلبات .
فأوضحت البنت :
ـ ولكنها تقلبات ضرورية لها .. فهل تنسين انها من أصحاب الخلوات المنتجة ، هي وهو : فالقدر قد اختار لها .
ـ ولكنه سيريد فيها الزوجة ، لا ذات الخلوات ، ولو كيفما كانت هاته الخلوات ..
نظرت سكينة قبل ان تجيب الى وقفة زوجها ، مشيرة له بأنها ستلتحق به ، بينما وجه هو الكلام الى ام زوجه : تصبحين على خير .. ثم قالت :
ـ اطمئني ، فلن يشكو مما هو فيه .. فهما سواء . المهم ان يلتقيا .

فرضيت الام ؟

ـ نعم ، المهم ان يلتقيا .. خصوصا وان به ما بها ، فقد لا يشكو بالاضافة الى أنه مثال الرجل الممتاز .. ثرى ومشهور وذو مكانة .

ـ نعم .. مثيله نادر ولقد ادركت ذلك فى السابق ، حينما كادت أن توافق . لكن وضعيتها القلقة بسبب اهتمامها الكثير بغير امورها يجعلها لا تبت فى الامر . ولولا ذلك لضغطنا عليها .

ـ وامورها ؟! وهل هناك من لا يبصر الشمس !! . لقد عرض ان يسكنها هنا لو كانت تفضل ذلك .. فقد اشترى دارا وأثثها .

فتعجبت سكينة :

ـ صحيح ؟ هذا مهم . لكن قد تكون تفضل المحافظة على ظروفها فى العمل .

فاسرعت الام :

ـ أمثله يتركها تعمل ! .. ثرى ومتأنق ويريد لزوجته ان تظهر : أيرضى بالعمل ؟ لا !

ـ هذا شىء آخر .. فالاناقة بالنسبة لمن فى سنه .. أوف ! لكن المهم هو أن يتم الامر .

مدت الام يدها واوقفت الشاشة عن ارسال الصور . وحكت :

ـ وبسرعة . فالناس لن يتركوا مثله طويلا . فلقـد

علمت أنه تلقى عرضا من أهل احدى تريبات زوجة اخيه .. شابة جميلة غنية وذكية .. بالاضافة الى تعلق كثيرات به ممن هن تحت امرته فى العمل .

ــ الحقيقة ان لا واحدة ترفض ان تتعلق باسمه والقابه .. لكنه حظها .

فزفرت الام :

ــ وهل فهمت !!

الفهم وكيف هو . والغرفة تشهد حكايا المرأتين . وذلك المثقف ذلك الثرى ينتظر . وفى غرفة قريبة ليلى بلا نوم، وشىء من الامل فى رحلة الغد . والعالم نفسه ليس خاليا من الانتظار . وتابعت الام :

ــ غدا حدثيها بلين . لا تزعجيها ، ولكن أثيرى الموضوع معهـا .

* * *

كان الصباح .. صباح هاته المدينة اقل قشعريرة واكفهرارا .. فهو بارد باعتدال ، انما كم هو فارغ وثقيل ، يوحى بجذور أعمق للنكبة ، فكأن الموت عند ما وصل اليه فى جولته تشتت ولم يعرف بعد كيف يلملم نفسه .. فلم يرحل ، بل ظل هناك الى هذا الصباح .

ورجت بكآبة :

ــ الى باب الوزارة من فضلك

فعرجت السيارة بدون مهل حتى تمايلت فى الوراء ، فوقعت عيناها على المرآة ، فرأت كم عربد الحزن على نسبة

الطلاوة والملامح والسمات ، وقال هو :

ـ هل أزمعت رأيك على أن تكلمى الوزارة فى قضيتك ؟ مهم .. يجب ألا تهملى مصالحك الى هذا الحد .. فتجعلى نفسك ضحية فوضى السير الادارى .

وقاطعته أختها مبتسمة :

ـ كونى عاقلة .. حاولى أن تتصلى به

ثم استدركت : فقط ، لو صادفته أن تسلمى عليه .. ان أمثاله من اذا أشار الى واحدة أتته الالوف . وأنت تدرين من هو مركزا وفهما وبعد صيت .

فحملقت فيها بتمعن غير مركز .. فبدت لها غريبة .. مجرد صوت يأتى من عهد قابيل ليكون نشازا فى الاذن لكن لماذا ؟ .. من قبل ، كانت تدرى وكانت تفهم طاقة الحياة ودمار الموت وتملك أن تقول جوابا وتعلله ، أما الآن ، فقد عشش فى رأسها فى أعماقها فى نظرتها فى أرجلها فى حركتها خبر كئيب كئيب تفر منه لتكون فيه .

جدها قال بنفس سلبية مسبحته :

ـ كل شىء بقدر .

فزمجرت : أبدا لا أسمح ان تقتل لى الاهق .. لقد كلفنى البحث عنه الكثير ، وما ارتبطت به الا لان ارادته لا تخدر ولا تخدم الدمار .

فاستفسر ومسبحته لا زالت تتزحلق بطواعية مميتة :

ـ ماذا ؟؟ ماذا تقولين ؟..

ـ اترك لى ايمانى

ـ يا حفيظ

فأوضحت هى : لن ينزل الله لينشىء لنا او يحارب ، فلقد قال لنا من الاول : (قل انظروا ما ذا فى السماوات والارض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يومنون) فما رأينا العالم من حولنا رؤية علمية متطورة ، فحق علينا قوله : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل ، اولئك هم الغافلون) .

وسارت هى . او لم تسر . لقد سبيت .

كانت وقفتهم قد استغرقت بعض الدقائق ، وكـانت أختها تستغلها :

ـ بالله عليك يا أحمد ، أليس هـذا صحيحا .. فهى نفسها قد وافقت تقريبا قبل أربعة أشهر .

ولم تجد ما ترد به . فانهت :

ـ مع السلامة .. رحلة سعيدة .

ومدت يدها لهما وعرفت انها كانت تبتسم ، انتظرت ريثما تحركت السيارة وودعتهما بحركة من يدها غير بطيئة، واتجهت نحو الباب الكبير الذى ينغلق على كثير من المكاتب والملفات والرؤوس والاجهزة والعشوائية وحيرة النظر :

ـ الزيارة غير مسموح بها اليوم

فأجابت الوجه الجالس وراء مكتب عند الباب :

ـ ولكنها كانت ممكنة من قبل .
ـ هذا اصلاح جديد .

فتراجعت : لقد كانت امام اصلاح .. الاصلاح الوحيد الذى خرج من هذا الباب ، والذى كان عليها ان تحترمه .. فقط ، لانها لا تعرف الآن كيف تقول رأيها فى مثل هاته الاصلاحات ، مع أنها تومن بحتمية بطلان مرحلة الاصلاحات والترميم . وسارت فى المدينة .. تتنفس بدعة ، وتتذكر ما عليها ان تفعله ، ولكنها اختارت أن تشرب كأسا من القهوة، لتطرد هذا الجمود الحسى الذى يتكلكل بينها وبين الاشياء، لتنجز من بعد ، ماستفعله .

وعند الطاوولة والكأس تساءلت بنوع مـن الوضوح : ولكن لماذا الوزارة .. لماذا جئت اليها ؟! .

وتجرعت ما تبقى من الكأس ، ثم طلبت آخر : كم هو لذيذ هذا الارتشاف الهادىء المفكر وسط المدينة التى بدأت تتحرك . ورأت الناس .. كانت تتعاطف معهم وتشفق عليهم أن يكونوا يتألمون في مستواها..أن يكونوا بدون حواجز بينهم وبين الاحزان ، ليعاينوا الدمار الغير القاتل ، ولكنه الملتصق كسم يعرف غايته . وهو ؟ ذاك . أتتعاطف معه ؟ .. من قبل قالت رأيها بصدق صادق : اننا نسير فى خطين لا يلتقيان .. ولن تتمكن الاغراءات الاجتماعية ان تنطلى على بصيرتى .

فاحتجوا : هذا لا يمثل ما هو صحيح ، فبينكما التوافق

الكلي ، وأنت وديعة ، ولقد عرفت الآن طريقك الذى كان يضيعك البحث عنه . ثم انه مشهور .

ـ ولكنى أبحث عن الى أى حد هو انسان ؟

وتنبهت : كان الكأس الثانى فارغا ، فدفعت وعزمت ان تمر أولا على أحد أساتذتها السابقين الذى كان قد وعدها ببعض الكتب ، والذى طالما تضيع منها فرصة أخذ الكتب منه كلما جاءت المدينة فى زيارات خاطفة .

* * *

لاح باب كبير آخر .. كم تنفر من الابواب الكبيرة اذ كلما كبرت الاشياء فى النظر ، الا وتنغص جانب منها ، لارتباط كبر هاته الابواب والبنايات بشكليات انجازات ملأت سنين من عمر أمم ..

ومن تعرج الممر لاحت حروف : ارشادات :

ـ من فضلك مكتب الاستاذ محمد سمير ؟

فأشار بيده وقال : المكتب الرابع عن اليمين .

فخطت خطوات ، ولاحقها صوته .

ـ أتبحثين عنه ؟

ـ نعـم

ـ لم يعد هنا ، لكن اسألى عنه هناك .

فتراجعت عن تمهلها وتابعت سيرها الى المكتب الرابع عن اليمين لئلا تدخله قبل ان تملأ ورقة باسمها .

غاب الحارس ، وقبل عودته أطل وجه نسائى باسم بترحاب : أأنت هى ؟ أهلا .. فرصة جميلة أن نراك .. اننى

ممن يسمعون بك ويتمنون ان ...

واستمرت الحيوية الودية تملأ المكتب مع بقية الاشياء .

ـ أشكرك .. هل الاستاذ محمد سمير لم يعد هنا ؟

ـ لا .. لقد انتقل الى وظيف آخر .. وأصبحت أشتغل بدلا عنه . أهناك من حاجة ؟

ـ فقط أود لو اتصل به من اجل بعض الكتب .. لقد وعدنى بها .

فتأهب بدنها فى حركة وأجابت بكرم ..

ـ يمكن ان تسألى عنه هاتفيا وان تكلميه .

وحركت القرص وأمرت :

ـ أطلب لى مكتب الاستاذ محمد سمير فى وزارة التصميم ...

ثم اقتعدت حافة المقعد فى توثب ، وتكلمت :

ـ اننى أسمع بك ، وما كنت أعلق على الصدفة كل هاته الفرصة لان نلتقى هكذا .. وما دمنا قد التقينا فاننى أخبرك باننى أعلق على نشاطاتك الكثير . فمن مدة ، وأنا أفكر فى أن نفعل شيئا ، نحن جيل المتعلمات .

كان صوتها طافحا بالامل ، كانه وجد وسيظل فى بعد بعيد عن كل ما ينغصه ، لانه فى مأمن من العلم بها . وكان ذلك الامان فى ذلك الصوت نفسه ، بتلك الطريقة فى اظهاره، يوقظ احساسا بالغصة : فكيف يملك بعضنا ان يتنعم الى هذا الحد ، مع أن زلزالا قد وقع .

ولم تبح لنفسها ان تكدره ، فهو على أى حال ، أمل انسانى ، ولهذا أجابت :

ـ نعم ، خصوصا وأنك تملكين مركزا ومؤهلات وامكانيات ، فأنت من تستطيعين أن تخلقى .

فقالت الاخرى بذات الامان :

ـ ولكنى فى حاجة لأمثالك ، ولك بالأخص .

ـ عفوا .

غير ان النظرة فيها انتظار ، فتابعت :

ـ بودى لو اننى فى مستوى مطلبك ، غير انى اعانى مؤخرا شعورا بالتعب و ..

فتدخل صوتها ملاطفا : تعب العمل والبذل ..

واقلقها هذا اللطف والاطناب .. لان كل هاته الاساليب المتعارف عليها .. أساليب المجاملة والمداراة ، هى التى ولدت الكلمة الغير الحقيقية ، التى أسهمت فى خلق الزلزال .

وتحرك بصر صاحبة المكتب : السيدة عائشة ، يمر عليها لتقول بنفس اللهجة :

ـ لكنه لن يدوم .

فتابع بصر ليلى مسيرة بصر عائشة عليها ، فرأت كم كانت مهملة الملبس .. فعليها كل ما كانت تلبسه فى الليل والذى منعها ثلج فجر مدينتها من النقص منه ، بل تركته متراكما تحت جلباب غير انيق .

ورن الهاتف : كان الاستاذ على الخط ، بذلك الصوت

المثقل بفهم انسانى وحدب أبوى .. واتفقا :

ــ سوف أحملها لك : .. فأين انت واين تريدين ان أمر بها عليك ؟ فعندى بعد قليل خروج فى عمل . ثم اقترح :

أتكونين بعد حوالى عشر دقائق فى مركز الانبعاث .

ــ طيب .. الى مركز الانبعاث ، مع الشكر .

ــ الى اللقاء اذن .

ووضعت السماعة ، فلقيها صوت الاخرى : واذن هل توافقين ؟ ..

وعلى ما ذا كانت تريدها ان توافق .. انها تشفق على هذا الصوت المطمئن أن يصادف أى رفض ، ففيه ما يمكن أن يعطى أى فهم .

ونظرت الى جلستها التى ترتقب ، ووجدتها تعيد مع نفسها : ومع ذلك ، كانها بهاته الجلسة المطلة على أبواب مشروع ، لا تدرك أن الاطار هو نفسه .. الاطار الذى خلقت فيه كثير من مثل هاته المشاريع الصغيرة من محيط لخليج ، أنه هو الباقى ، مع انه هو الذى ولد الموت فى قضية وزرعه فى كثير من النفوس . ورغم ذلك تسألنى : هل توافقين ؟ لو استطعت لركبت فى صوتى مائة مليون حنجرة .. صوت كل الذين أصابتهم شظية معركة ، لازمجر : لن أوافق لن أوافق لن أوافق ، لتفنى الدعة والجلسات المطمئنة والتقبل الخانق فى وثبة تعيد للحياة بكارتها لنبدأ حقيقة من الاول .

ودب صوت عائشة فى الزمجرة :

ــ أرجوك .. انك لا بد ان توافقى

اننى لا بد ان أوافق !! . ولكن كيف ! فهل على أن أسلم بما هو كائن لاسهم فى استمراره ، لاشارك فى الحركة المجهضة التى ملأت مساحات وحلقات تاريخية وكثيرا مــن الاشخاص ، حيث تفجر كل ذلك منذ شهور ، فى وصمة .

لكن ماذنبها هى ؟ : انها من اللواتى لازالت اصواتهن ترتعش بأمل ، دون ان يتعمقوا فى فهم الاندحار وبواعثه .

واحتارت : فمع من هى من النبرتين فى صوت عائشة ؟.

ودفعة كانت فى صميم ذلكم الاحتيار .. احتيارها الذى زمجرت به معركة وانطلق ليتقعر فيها : فالمشكل فى كل خطوة : أمع الموت أو الحياة هى ؟.

ـ أرجوك ، أعطينى فرصة .. سوف أتصل او أكتب لك فى الامر .

ـ ولكن لماذا ، لا ، الآن ؟ .

ـ فى دماغى اشغلة ويجب ان افكر .

ثم اعتذرت : قد يكون الاستاذ فى انتظارى

فألحت عائشة وهى تضع يدها فى يد ليلى الممدودة :

ـ اننى اثق بما انتظره من جواب .

ـ الى اللقاء

* * *

الشوارع مبللة بمطر كان ولم يستمر .. فترك أثره فى سير الناس وانتشار الصمت واغلاق النوافد . وكان هذا المنظر نفسه ، يوحى بالزيادة فى التلف .. فبعد خطوات

تساءلت :

الى 'بن ؟ .

ثم امتلكت خطواتها ، دون ان تسمع ذلك التمزق الحاد الذى ياتيها عادة من اصطدام حذائها بالاسفلت ، ففى رجليها الآن حذاء شتوى بليد القاع والمنظر . وعند النور الاحمر توقفت .. وكانت الشارة هى نفسها ، لم تكن شيئا آخر كما كانت عند فهمها من قبل ، حينما كان ذلك الفهم يتجنح بعيدا عن التقاط الشىء لذاته ، وانما فى خلفيته التى تزيد فى ايغال المعنى الحقيقى للشىء ذاته . واعترتها رعشة : انها سيارة تشبه سيارته ؟! . ولكنه لم يكن هو . وقالت فى نفسها : أ أنا جبانة ؟! لم اعرف هذا الهروب الخالى من معناه الا الآن . وزفرت : كم سحقت المعركة فى من بطولات ! .

ومع استمرار الخطو وامتداد الطريـق تابعت تفكر : قبل حوالى سنة ، كنت أمتلك شجاعة أن أقول رأيا . ولكنه عرف كيف يختار لحظة ما ، حيث أعاد المحاولة حين كان كل شىء فى وحوالى يموت ، تقتله الجحافل الفارة والاعلام المنتكسة والاسلحة المتروكة وكذب تاريخ كان يقول ليفاعتنا الكثير . أوف ! بودى لو أهرب من كل هذا . قالت ذلك حينما كانت تقطع الشارع عرضا ، فاحدثت توقفا ضاجا فى حركة سيارة كادت أن تدوسها ، فاستهزأت : اما الموت واما الحياة وتكون المهزلة ! .

انتظرت فى داخل االمبنى وعند الباب ولم يحضر : كم

تكره الانتظار :

ـ أبا رمضان ؟ لو حضر الأستاذ محمد سليم .. اسأله من هو أن يحث عني .. فأنا عند الدكاني آتلفن .

دار القرص وأجاب الصوت :

ـ أنت ؟ .. أعتذر ! فلقد حضر معالى الوزير وسوف نستقبل أحد الرسميين الآن .

ضغطت السماعة وهي تنزلها بقنوط . فبها شوق طارىء لان تقرأ قليلا ، انها ، منذ شهور طويلة أقلعت عن ذلـك الهوس .. وقررت : سوف أشتري بعض الجرائد لاقرأها حاليا .. فانا لا أدري الآن ماذا سأفعل . وخرجت .

ـ انني أنتظرك

كانت صاحبة المكتب الرابع على الجانب الايمن عند باب الدكان تنتظر .

ـ تنتظريني !

ـ نعم .. معالى الرئس الكبير يريد أن يقابلك ، ولقد جئت بنفسي خوفا من ألا تحضري اذا مـا أرسلت أحـد الحراس في طلبك . سألت عنك في مركز الانبعاث فأخبرني الحارس انك هنا .

ـ أهلا بك . تعالى اذن الى مركز الانبعاث .

ـ لا يمكن .. لقد تركت المكتب ومعالى الرئيس الكبير ينتظـر ..

وطرق الرئيس الكبير سمعها من جديد :

ــ ولكن لماذا كل هذا ؟

ــ انه يريد أن يقابلك .

ــ ولماذا سنتقابل !.. انني أعتذر .

فركب وجهها استغراب :

ــ لعله يريد ان نتذاكر جميعا فى الموضوع .

ــ ولكننى قلت انني ساكتب لك .

ــ ذلك بيننا ، ولقد أخبرته بلقائى بك ، وهو يريد ان نلتقى جميعا .

ــ اننى لا استطيع .. فعندى كثير من الاشغال .

ــ بعض دقائق فحسب . انه ينتظر .

ــ ولكنى غير مستعدة لهاته الملاقاة ، ذلك لانى متعبة من كل عمل ، ولا أريد الآن أن التزم بشىء .

ــ سنتذاكر فحسب .. انه مجرد لقاء .

وخبطت الأرجل الاربعة وكانت رجلان من تلكم الارجل بلا هدف .. فهما لا تملكان ما تفعلانه : ضالتان منذ حادثة أصبحت كتاريخ .. فكل حركة منهما مجرد هروب الى هروب فى هروب .

وهطلت قطرات خفيفة ، فازدادت الكآبــة امتداداً ، وكادت تشعر بالاختناق : فضمن هذا الاطار المكون من التيه والغلبة والكآبة والحزن ، كانت تسير . واعترتها رغبة فىأن توجد فى أى مكان غير هذا المكان ، او ان تجد مــن نفسها طواعية لفعل اى شىء ، أو نوع من الاستكانة لتقبل جريان

الايام كما هى ، او القدرة ء لى اقتلاع هذا الاعتياد المميت الذى يسير بالحياة فى غير مجالها اتكرن فى المجال الحقيقى الذى يولد الظفر .

✪ ✪ ✪

الباب الكبير نفسه قد أطل .. يمتد فى فراغ أكبر من جل الابواب . هاته المرة دخلت مكتبا فآخر فآخر بلا ورقة . كان من فيه فى وداعة الحمام وابتسام الفرح وقدمته عائشة : زوجى نائب السيد الكبير . فتساءلت ليلى بصمت : لكن ما ذا سيفعلون بى ؟ وادخلوها الباب المبطن ، فاستقبلها بوقفته مع سمات مدينة بعينها : بياض وشقرة وخاصية قامة ولباقة سلوك . وتذمرت : ما لى وكل هذا !؟ ثم استدارت تستنجد بأول وجه تعرفت عليه ، فوجدتها بجانبها والرئيس الكبير يشير بالجلوس .

ـ سعادة الرئيس .. انها الآنسة ليلى .. لقد تحدثت معها فى الموضوع ، ونحن نريد من سعادتك أن ترعى خطواتها وأن تجعل من فكرتنا شيئا قائم الذات و ...

فالتفت الكبير وتكلم :

ـ لقد تعرفنا عليك قبل الآن ، من خلال اعمالك ومن محاضرة احد الاساتذة المحترمين الذى تعرض لهـذا العمل موضحا وناقدا ..

فتكلم فيها شىء بصمت : تلك المشاريع التى كنت أفر اليها من استفهامات عملاقة ، أعطتهم وجها كبيرا عما استحق.

وتابع :

ـ ومن المهم جدا أن نلتقى . انه اقتراح هام للسيدة، ولن يكون من جهتنا الا ان نوافق ، ولو أنه ليس من اختصاصنا، لان هناك وزارة مكلفة بذلك ...

واستمر السكوت ، فاستفهم : فماذا ترين ؟ .

فالتفتت نحو رئيسة المكتب وقالت : أعانها الله .

وكان زجاج النافذة يبرق أمامها ، فلقد التمعت السماء بشعاع مباغت ، فلذ لها ان تغرس بصرها فيه

ـ أمامك الزجاج .. تفضلى . وأشار بيده

فظلت ملتصقة بالمقعد . كانت فى غير الجلسة ، ولكن سمعها كان يلتقط :

ـ سوف نحاول أن نضم جماعة أخرى من المثقفات لخلق عمل باسم المرأة . وأنتم ستساعدوننا ...

فابتسم الرئيس الكبير وعلق : كتلك الجمعية التى حاولت أن تحققها وزارة ...

فردت عليه : نتمنى أن تكون عكسها .. بلا مشاحنات أو سباب ! ..

وافتكر قليلا قبل أن يغير :

ـ ولكنها الوزارة الاخرى ستفعل .

ـ لتعمل هى ونعمل نحن .. فالميدان فسيح .

ـ وستفعلين أنت هذا ايضا ؟. ستكونان هاته الجماعة من أجل عمل جدى ؟...

كان يوجه الحديث اليها مباشرة . فاعترفت بشكل

صبياني :

ـ ولكني لا اعرف .. انني لا أظنني أنجح في تحقيق هاته العلاقات .. ان الاخت هي التي ستفعل .

ـ وماذا ستفعلين أنت ؟

كان صوته كأستاذ قد ضبط تلميذا في حالة اعتقد انها كسله ، فتجاوز عنه ، ولكنه لم يتركه . وفكرت :

وما ذا ستأفعل ؟ هاته هي المؤسسة الثانية التي تكلمني في نفس الموضوع . وبطريقة تكاد تكون متشابهة .. ومع ذلك يسألني ماذا سأفعل ؟ وأجابت :

ـ اذا ما استطاعت ان تكون هاته الجمعية .. فسيكون انضمامي اليها مجرد هروب ..

ثم اتت حركة رفض وندم برأسها : لماذا تصرح ؟!

ـ هروب !

ولكنها استمرت ، ففيها شيء ما يرشح :

ـ نعم .. اى شيء قد افعله ، انما سأفر اليه مما هو في .

ـ ولكنك عادة تعملين

ـ كنت .

ـ والآن ؟

فقالت وهي تزفر : لقد أضاعوا لي وسيلة عملي .

فردد : أضاعوا لك وسيلة عملك ! من ؟

ـ الجميع .. كل من عاصر الجريمة او صنعها .

كان يلاحقها ، ففي منطقها ما يشـــيره . لهجة غير وزارية

على أى حال .

ـ أية جريمة ؟!

ـ جريمتنا جميعا .. جريمة كل من هب ودب عبر مسافات جغرافية كبيرة ، لئلا تخلق حركته غير الانهزام ، فنحن قوم ماتت طاقة الحياة فى عروقنا منذ قرون ، منذ ان سقطت انبراطوريتنا ، فخفت دماؤنا ونضبت فيها عناصر البقاء فعجزت نهائيا عن أن تلد أية بطولة .

وبلغته الكلمات الحزينة وانحطت فوق رأسه ، فاطفأت بريق التساؤل فى عينيه : كان قد فهم . أما هى فقد ارتعدت فيها الذكرى ، واستيقظ فيها ذلك اليأس القاتل الذى نحر كل البطولات والعبقريات من كل جنسها ، وتركها انثى بلا اهل ولا سلالة ولا انتساب . فمن قبل ، قالت الكثير لنفسها عما ينتظره الحاضر من قومها ، غالت فى الامل ، وتهيأت كليا لان تفنى فى العطاء ، وهى تدغدغ مخاض الجهاد فى العمل ، بكثير من النماذج علها تصنع من نفسها نموذجا . وحينما اقتربت من ان تفعل ، أجهزت معركة على كل رصيد الليالى والايام وخدمة الليالى والايام ، وقالت فحسب : من تريدين أن تعملى لهم ، قوم ينهزمون .

ولا يمكن أبدا أن تسلم بالهزيمة .. أن تكون من فصيلة تنهزم ، لا تصنع الهزيمة فى معركة ، بل فى قرون ، حينما رفضت هاته الفصيلة أن تتكلم بأساليب العقل والعلم.

وحركت رأسها مبتعدة عن الزجاج ، كانت تريد ان

تتنفس خارجه .. خارج الجلسة ، خارج المكتب ، خارج الذكرى . ولكنه رفع رأسه وقال :

ـ ولكننا نحن لم نصنعها .

فتداعت نظرات الآخرين من حوله تؤيده ، ولكنها وقفت من هذا الرأى وذاك التاييد موقف الرفض . وتعجبت :

ـ نحن !! ...

فأجاب على الادانة المطروحة فى الصوت وطريقة التعبير .

ـ أبدا ، لقد شاركنا ، ولكن اعتدادهم المتطرف ، ابى علينا هاته المشاركة .

فرمت بمرارة : بل ياسيدى ، نحن جميعا ، وفى كل مكان ، كنا نرقب الاحداث بحذق ومهارة ، لنعرف متى نختار ان نعلن عن اسمنا ودوره الخائب فى المعركة .. كنا جميعا نتلاعب على الدور ، لئلا يؤديه أى أحد ، فيصول الخصم ليضرب ضربته .

فانفعل : ولكنهم هم حاربوا ، وكانوا يريدون شرف النصر لهم وحدهم ، لانهم هيأوا له من سنوات .

ووضع يده على المنضدة وكان ينتظر ، فجاءه صوتها : ان بواعث الموقف أشد مرارة .. فلم يكن الحدث الا فرصة عند بعضهم لان يصفى بعض الانظمة المضادة فى الحدود . فالقضية قضية كراسى وأمن داخلى لا كفاح يتوقف عليه مستقبل امم وحياة أجيال .

ولم يكن يوافق ، ولكنها تابعت : الـم تكـن السنون

السابقة التى كان يجب أن تستغـل فى الاستعداد للـواقعة المنتظرة ، مملوءة بالتحرش مع بعض ، وبهوامش الاستعداد، وبالتناحر الداخلى واهمال البناء الحقيقى للشعوب .

وأعلن بانتصار : تلك حالتهم ، اما نحن فبرءاء .. اننا لم نشاركهم هاته الاوضاع ، ولكننا ضحية هزيمتهم .. اننا لسنا منهم .

.. لسنا منهم !! .. وباغتها صوتها دامعا ، يرد : اننا منهم .. أبدا ، فأية هزيمة وأى انتصار منهم هو لنا .. هكذا تعلمنا : نحن فرد واحد : قصرنا .. خنا أنفسنا ، فخـاننا العالم وخانتنا المعركة .

وزفرت بألم مرير مرير .. ودارت برأسها غشاوة .. ونفرت كل المفاهيم ، ولم تعد تدرك ما ينبغى أن تفهم . ثم تنفس غليان الاعماق عن استعطاف مبتور لا ارادى :

ـ يا سيدى .. رجاء .. انت مسؤول وانـا تعترينى حالات تمرد .

ولم تتم .. كانت تتمسك بوشائج انتسابها بأولئك المندحرين . كيف يقول لها : اننا لسنا منهم . ان الصلة يجب أن تكون وقت الشدة ، وهى لا يمكن ان تنفصل عن المطرود الذى فقد أرضه ومنبته . واستدار رأسها .. كـانت كأنها تبحث عنهم : عن كل الذين بلا أهل ولا ديـار ، لتضمهم ، فتجسد حقيقة الدم وصلة الدم وتضامن الدم .

وازداد بصرها انغراسا فى الزجاج وما بعد الزجاج ..

كانت وراء المكتب تبحث عنهم . ولكنهم كانوا فيها .. المعركة ابتدأت هناك ولم تنته في أعماقها . قال الطبيب : لا تعاكسوها .. يجب ان نتعاون لتمر المأساة بسلام ، فاتركوها نبكي أو تهدر او تصمت كيف تشاء . وحاولوا أن تجعلوها تسافر . ولكنه الآن يريد أن يفصلها عن الشعور بالمسؤولية : اننا لسنا منهم !.. ان هذا لم يقله الا المدرس الفرنسي حينما كان يخدم أغراضه ليحدث الانفصام في الشخصية المغربية ، فيقطع صلتها بالاصل ، ويربطها كخادم ذليل تابع للسلالة الشقراء . ووجدت نفسها تقول له في يقين ، بينما كانت عيناه لا تفارقها :

ـ نحن لم نتعلم هكذا ..

وفهم . فحرك رأسه ايجابا ، ثم أحناه متأثرا : كان صورة لكيان عربي صعقته معركة مع أنه يحاول أن يفر منها بوسائل خاصة ، ولكنه أخيرا يواجهها . ونبشت أصابعه أطراف مقعده ، ورمى بصره وراء الجمع ثم اعاده اليها : كان غائبا .. كأنه كان مع ذلك الاستاذ الذى أعاد الآن رأيه ، ولكنه كان يصارعه ويسفهه ليرتبط بقومه ولو انهم معفرون . وحملق فيها أكثر ، واعاد بصره الى الاسفل وتنهد : كان كئيبا .

ولكنها كانت تنفجر وهي لا تخاطبه وانما تخاطب كل الجميع :

ـ قل اننا منهم .. أقل اننا نحن الشعوب ، نحن الذين صنعنا الرذيلة : نحن الذين لم نخلق من يمثل أهدافنا

ويحملها تاريخيا ، مسهما بدوره فى خلق الفرد الواعى بعصره ومسؤوليته ودوره . فنحن نتشاغل باللقمة او بالسلب والغش لان يفعل بنا ما لا نشاء ، أو لان يرمى بنا فى معارك غير جاهزة ، لنعود بالهزائم . ومع ذلك هل تكلم اى شعب ؟ ان أى شعب لم يجهز على قضبان قفصه ، فهو لازال سجين نفسه لا يستطيع ان يحقق اية حرية . فموته قريب منه وهو لا ينجزه ليبدأ الحياة ، حياته هو : لقد مات الدم ، مات الدم !!

فانتفض نائبه محتجا : لا أبدا .. لاداعى لكل هذا اليأس.
وراحت برهة صمت ...

ثم التفتت نحو احتجاجه متضرعة : ولكن قل لى .. من سبعة فروز ودمنا لم ننتج بطولة على الصعيد القومى : فما معنى هذا ؟ اننى أشك أحيانا حتى فى الصفات البشرية لا الانسانية هل هى لنا : فأين العقل والاعضاء ومنطلقهما فى حياتنا منذ قرون . البشر تحرك فى ثلث العالم .. فى القارة الكبيرة وفى نقطة صغيرة مرمية فى البحر الذى يفصلنا عن عدوة الحريات فى القرن العشرين . ومع ذلك ؟! ...

فاستمر صوته بثقة : ولكننا حققنا انتصارات الاستقلال، يجب الا تنسى هذا لقومك .

ـ وبعده ؟! اننا لم نبن ، بل نرتجل فقط ، ماتت الهمم وتشاغلت الانفس بمطامعها ، فضاعت فورة معارك الاستقلال ومل الناس .

ـ لكن لا ..

وتدخل الرئيس الكبير مقاطعا :

ـ تكن بوقوفك هكذا امام الهزيمة تبنين نصرهم .. تؤكدينه .

فردت عليه :

ـ وما حدث ماذا تسميه ؟! .

فعرج بالموضوع وأجاب :

ـ ما حدث حدث ، لكن الآن ، أنت ؟..

ونغل فيها السؤال . ثم ردت

ـ ولكنى لا أستطيع أن أكون بغير ما يحقق أى نصر . ليتأكد ، بالنسبة لى وللآخرين ، ما يدعم الارتباط بالوجود فى مفهومه المدرك . اما هذا الاكتساح من التلاشى ، من طرفنا ومن الخارج ، من معركة يونيو ومن كل المعارك التى لم تنجز منذ قرون ، فلن يكون غير تعرية قاسية قاتلة تمسح كل الاوهام التى غلف التاريخ بها سلالتنا .

ـ لا لا .. ان معركة واحدة لا تبطل التاريخ .. قد تجرحه ، ولكنها لا تتدخل بحكم نهائى ، كما تعتقدين .

ورمت نظرتها الى نفسها والى الخارج . واكدت لنفسها أولا : ذلك ما انا فى حاجة اليه ، ثم أفصحت :

ـ ولكن كيف أستطيع ، الآن ، أن اغفر للآخرين سهوهم عن المشاركة التاريخية ، وأغفر لنفسى ومعاصرى فى مثل هاته المشاركة . ان الهزيمة هزيمة وكفى .

وازداد صوته لطفا وهو يرد : قد يكون .. لكن يجب أن ننقذ انفسنا منها .. على الاقل انفسنا .

واعترفت :

ـ وكيف لى أن اهرب مما هو فى ؟!

وكانت عيناه : عينا الرئيس الكبير معها . وتكلم :

ـ لانك انثى . اما نحن ففى نفس حالتك النفسية ، ولكننا نحاول ان نغالبها .

وأذعن رأسه ، بينما نظرت هى الى من بجانبها . وفى الصمت ، كان تضامن قد عقد صلة فى الجلسة ، كل يمثله بشكله ، ولكنه واقع .

ورفع راسه : حاولى أن تخففى عن نفسك .

وأضاف .

ـ مرت شهور ، وحالتك هكذا ! لا لا . هذا مؤلم .

فشاركه الآخر بتريث :

ـ حاولى ان تنشغلى .

ثم نظر فى عينى الرئيس بتلطف ليضمه الى رأيه ، ويذكره بالموضوع الاول ، فانبعثت رئيسة المكتب الرابع على اليمين من جديد ، وتكلمت برجاء :

ـ نعم يا معالى الرئيس الكبير .

كانت تستحثه ، فقال :

ـ اننا لم نر مشروعك الاخير . أمعك نسخة ؟

فعادت من ذهولها :

ـ لا . ثم اضافت : لم اكن اظن اننا سنلتقى .

فأفصح :

ـ فرصة هامة أننا نلتقى . ثم اننى أريد نسخة ، وأريد ان نتفق فيما يخص الموضوع ، لبداية العمل .

كانت منهمكة : العمل ، العمل ! لكن بودها ان تفهم : هل هذا عمل ؟ . ولم تجب . مدت يدها ولمست مقبض محفظة يدها كانها تحملها . وفى صدرها كأن ثلج ، وفى اطرافها تحدير ، وبها رغبة للراحة .

ووقفوا . تحركوا . القامة الطويلة منحنية فى تأثر . ووجه المكتب بريد أن يتغير . وصنداع برأسها يمرح . وهو يقـول :

ـ انك لا بد ان تزورينا .

كان الصوت يرجو . وكان صوت نائبه يقول :

ـ اننا لم نتفق بعد ..

ـ بالاضافة الى أننا نريد ان نرى المشروع ولا بد .. لا تنسى .

وتصافحت الايدى .. مرة ومرتين : كان تضامن صغير فيها . وكان الانسان . وخرجوا .

✪ ✪ ✪

بلا جوع كانت . لكن التعب كان . واحتارت مع الشوارع: أيها تقصد . ان همودا قد باغتها ، فهى لا تفكر ، ولكنها تسير . وتمنت أن لو كان هناك اى باب تقصده ، فهى تريد أن ترتاح .

الأبواب كانت ، ولكن لم تكن تعرف ماذا تعمل : هل تدخلها أم لا ؟ نعم أو لا ؟ . نفس المشكل ، ولكنها تسير . هـذا ما أصبحت تداومه .. أن تبعثر الخطوات على كثير من الدروب. حتى اذا ما استقرت قليلا ، انطلقت ، بلا وعى ، باحثة عن شارع تخترقه او مسافة تقطعها : كان جذر من جذورها قد اقتلع ، فأخذت هبة الريح تتسكع بها فى المجالات والأزقة ، وتحركت المدينة فى وقتها المعتاد ، وانطلقت تموج بالسيارات والأرجل . هاته الحركة من قبل كانت تـوهم بالحياة ، أما الآن فبالرياء : فليس للحركة غير مدلول واحد ، أن تكون حركة فى الأصل .

وفى الطوار المبلط قـديما صادفت زينب : زميلـة سنوات هامة من العمر . كانت بشوشة فى تأنق ، يداعب رأسها زهو متطرف لا يوحى بغير المظهر الأنثوى بلا إية غايات .

استمرت السيارات تمشى ، والصوت المنغم يلح : لا بد ان تتغذى عندى

ـ الى فرصة أخرى .. عندى الآن موعد .

لم تدر كيف قالت ذلك ، ولكنها قالته .. لعل خيلاء رأس زينب المبالغ فيه هو الذى جعلها تقول .

وكانت الايدى فى الايدى ، ولكن عينى زينب امتلأتا بسؤال مفاجىء ، حركت شفيتها مرتين قبل ان تلفظه غير تام :

ـ صحيح ان الاستاذ .... يقترن .... ؟

فاتمت ليلى السلام وهى تجيب بدعة وحياد :

ـ يمال .

وحينما انكبت مع الشارع همهمت : لو سرت معها فان استجوابا كبيرا سأخضع له . ولكن اين سأذهب ؟ .

سارت وسارت . لو انني رجوت الكتب من أستاذي في المساء ؟ . لكن لا . توقفت واشترت جريدتين ومجلة . تصفحت المجلة فلم يتحرك اهتمامها . عادت لجريدة . الحرب على أشدها بين الجمهوريين والملكيين في اليمن . معناه : ان قومها قبل الحدث هم انفسهم بعده . ألم تقل بلا رجاء لاحد الصحفيين حول مؤتمر القمة المنتظر : نفس الوجوه ، نفس الاسماء ، نفس الاذهان : نفس النتائج عادت الى نفس البائع ووضعت بمهل نفس الجريدتين والمجلة : لقد ماتت الكلمة . من شهـور احتضر المـارد الجبار الـذي كان يسيطر عليها وتركها بلا اى شيء ، فاصبحت تستخفهم : ألم تكن كلمتنا في مستوى ريائنا ، انها لم ترتفع أبدا لمستوى الريادة . لقد خدمت النتيجة ، فصنعت هي أيضا نفس هذا المصير ، ومن أجل ذلك اعتقدت : عهد الخطابة والعنتريات وكلمات التأنق انتهى ، والفم العربى لم يستطع ان ينطق بغير هذا : انني أكفر بها وبه ، بالكلمة والفم . وأين سأذهب ؟ المدينة مفتوحة على قدر حالها كما هي . نعم فيها غم يمرح . وفكرت : لو انني استطعت ان أبقى عند (نعم) عندما كنت في الفناء ، لذهبت اليه . لكـن متى ذهبت الى أحد ! .

الآن وما أقسى الآن .. أن يكون الانسان بدون لا ، بدون نعم . قلت لنعم تلك ، التى كدت أن أقولها فى ذلك الزمن . بك يا نعم ، سأتوافق مع موتى ، سأصبح غير أنا ، سأكون وجها صادقا لمجتمع يرفض الاحياء ويقبل الموت . سأتأنق وأغرس بصر الاحتقار فى كل المعتقدات التى خانتنى وخانت أهلى وأعيش ابنة عصر همه فى غير حقيقته . لكن ..

الواجهات هى هى ، لكنها كانت جديدة بالنسبة لرؤيتها. توقفت عند بعضها وغرست فيها البصر . جميل ذلك الحزام، بودها لو كان لها . بامكانها ان تشتريه فهو معتدل الثمن ، ولكنها لن تفعل ، فالدكان مغلق ، وهى لا تدرى هل توافق هذه الرغبات الجديدة أم لا . انطلقت صفارات السيارات فى زعيق ، فتركت بصرها عن الواجهة والحزام ورات تجمع السيارات فى توقف بسيط بسبب حادث دراجة . صاحب الدراجة سليم . سكتت السيارات وتابعت . ترى كيف ان الآلة تزعق لو اعترض سبيلها شىء . لكن بعض الناس لا يزعقون : يستسلمون .. فهم الموت بعينه . وذاك الرئيس الكبير ليس ميتا .؟ اما الآلة فهى حية . شىء مؤكد . لكنه هو ايضا حينما ذكرته بأنه كبير كبير وبأنها قد تتمرد ، أتى بحركة تقبل واعتياد وهمهم : نحن نتذاكر . اوف ! ما معنى المذاكرة وما جدواها . انه شىء آخر ما أبحث عنه . ما هو ، ما هو ؟ .. أصبحت المدينة اكبر مما تحتمل . لا ، ليس هى بل تعبها . ترى ، أفى المدينة ما هو حى ؟ فظيع ان تكون كل

هاته المدينة بلا حياة . وهو ، أليس حيا ؟ الآخر . قد وقد .
تلك المره كان حيا على طريقته فانتقم منهـا بلسانه حينما
علم بموقفها . لكنه عاد ، عاد !! . ألانه عرف متى يستطيع
أن يسطو .فكان بسبب ذلك عند بعضهم عظيما : فهو يعرف
متى وكيف ينصب الشبكة . وتلك الشبكة كادت أن تظفر
بغير الاياب . لكن الآن الآن ؟؟ . اوف انني تعبت من الآن .

وعند الآن رأت أن تعود . فليس فى هاته المدينة ما
تفعله . نعم فيها شوارع ومسافات وغم . وهـى تفضـل ان
تتحـرك بغير قدميها . لقد تعبت

✪ ✪ ✪

فى مدينتها فرح ، وهى محتاجة لأى فرح. لكن أتستطيع
أن تفرح . تلك المرة حينما كـانت فى السفـر ، فى قاعة
عرض كبيرة ، وكان اهتمامها فى أوجه لانها الحت على رؤية
عرض لا نسمح بلادها بدخوله ، بكت . سيناء . الرمل المخضب
بالدم والدل والغضب . لم تكن سيناء تعرض ، ولكنه شارع
من شوارع موسكو فى حالة انفجار ، غير انها لم تر غير سيناء:
غير الموت والقهر وانتهاء كذبة سلالة .

عاد الناس للفرح . لا بد لهم من ذلك . هم يقولون :
لا حزن يقتل . هنيئا لهم باعتدال اهتماماتهم . لا ، ليس هم
وحدهم . فكما علمت مؤخرا : كل البلاد . ان مولودا قد انضم
لزمرة العبيد . يجب ان نفرح . وكل شىء كان يفرح ..
الاجهزة والاصوات والطبول والزغاريد الا هى والبعض .
فالقداسة تعنى أحيانا ان نكون فى غير صف الفرح لان الفرح

حينما يفقد وقته يكون بلادة . وبحمده ، نحـن جميعا ذلكم البليد . فكل السنوات السابقة لم تخلق من جحفل هؤلاء البشر غير من هم عليه . الذين يفرحون بلا وقت وينهزمون كل وقت ويبكون جل الأوقات

✪ ✪ ✪

ظلت الارض لا تهتم : فهي تتحرك .. الليل والنهار . والليل بلا نهار . وكل الامم لها رصيد . وهل مات رصيدنا ؟. لن يملك احد امكان أن يحيا وهو بلا اقتدار او رصيد او أمل

أما خالها ، فقد مسح دموعه من مدة ، وكان الآن ينصح :

ـ يا ابنتي ، انه من أكبر الرجالات ، به ترفعين رأسك بين النساء ، وانت الآن عاقلة ، وتستطيعين ان تفهمي . لقد حكى لي صديقي الحاج محمد ، عن ممتلكاته وطريقة عيشه بحيث لا نرفضه الا .. الا ...

قال ذلك واستنشق سعوطه وتنحنح . انه طيب ، لكنه لا يعرف العالم في غير لون واحد : ان يكون رجيها فهو وحاه ما يستطيع أن يقبله . كان بامكانه ان يستمر في عرض وجهة نظره ، ولكنه لم يفعل ، فهو ايضا يراعي حزنها والقلق . ولكنها قالت له :

ـ أخبرتني امي انك ستسافر ؟

ـ أتريدين أن تسافري ايضا !

ـ بي رغبة لذلك . ان دماغي احيانا يكاد ينفجر .

ـ ارجعي لله يا ابنتي واحمديه . انت كالآخرين .

ـ احمد الله !. انني ادين كل احد وكل شيء . وبودي

لو نصبت مشنقة للمجرمين ، ابتداء منى .

ضرب كفا بكف وهمهم :

ــ لا حول ولا قوة الا بالله .

ولكنها استمرت :

ــ فحتى انا لم انتج مدفعا ولا نابالم لاحرق الظلم اينما يوجد ، ولكنى أنتجت كلمات مترفة . قلتها للمدللين ، وتعلقت بهموم غيبية ، وكذبت على آخرين وقلت لهم : انكم من سلالة الابطال .

ــ لماذا تحاسبين نفسك الى هذا الحد ؟!

ــ أعرف ، فهى ادانة على الطـريقة الارستقراطية . لا تخف .

واسرع ضيف شرقى يعقب ، لعل تعقيبه يجدى :

ــ نحن الذين هم أقرب الى النكبة لسنا هكذا !

فأسرعت بدورها :

ــ هنيئا لكم بذلك القرب وهذا الاطمئان .

وتجاوز قولها ، واستدار ليحكى لهم :

ــ فى عنف المأساة كنا ــ ونحن رجال ــ نبكى . تصور أن كبيرنا قبل بداية المعركة بكى وهـو يخطب على الشعب وينادى بالجهاد ، فبكى الجميع و ...

ــ مساكين ! الله يعوض عليكم دموعكم . على اى حال ، لقد نجح كبيركم فى أن يخدركم بدموعه ، لتنسوا انه خالق منكم مجرد بكائين : لو صدق ، لخلق منكم عاملين ليكون

متوافقا مع صيحته وهو ينادى عليكم بالجهاد . ان الكاسحين لا يجاهدون ، لكن يجاهد وينتصر من يجاهد من البدء ، فى مجالات الحياة والاختراع وكل المرافق وخلق شخصية الفرد والامـة ..

اضطربت النظرات ، وكانت أكثرها اضطرابا نظرة الضيف المعمم . ومع ذلك استرسلت :

– على من ينادى .. فهو لم يكلمهم ابدا ، كل وسائل الاتصال بينه وبينهم بيده ، فهو لا يجعل ألسنتهم تتحرك الا بما يريد أن يسمعه . فلماذا يسفح الآن دموع ريائه عليهم ، انهم ضحيته ، ولكنه لا يكتفى بل يزيد فى تزكية آلامهـم وتحطيم رجولتهم ليظلوا فى الجهل والعجز ، لئلا يعرفوا من قص أذرعهم وشهامتهم . والنتيجة ؟ ماذا فعل وفعلوا وفعلنا من أجل شباب بركة القمر (I)

احمرت عيناها ، وتاهتا ، ولم تستقر الا عند الصورة .. صورة البركة المكهربة وشباب قومها فى داخلها يحتضرون ، وهو ؟ .. الباكى الجبان ، يسفح دموع التمساح ليكهرب هموما وأفهاما وبطولات .

أسرع الخال يتدخل ، وقد اشار للضيف راجيا ،

(I) بركة فى قطاع غزة ، تلصق بها سلطات الاحتلال الاسرائيلية تيارات كهربائية، لترمى فيها الشباب الفلسطينى المناضل .

بالصمت :

ـ طيب طيب . سنسافر ، متى تريدين ؟

كانت الام تشهد المنظر بهلع طافح ، ولكنها كانت تتمسك باخيها كوسيلة لان يفعل اى شىء . فاستدار الخال نحو هلع أخته وطمأن : نعم ، سوف نسافر .

وكادت ان تقول شيئا ولكنها تراجعت .

ـ مجرمون .

تفوهت لا اراديا . ثم عادت اليه واجابت بتخاذل :

ـ نعم سنسافر .

كان وجهها ممتقعا ، وفى عينيها نفس الحمرة ، لكن صوتها وحركتها بطيئان .

ـ غدا ؟

ـ كما تريد

واكدت الام وفى عينيها استعطاف :

ـ ولماذا لا ، اليوم ، انهم فى العمل يتجاوزون عن غيابها بسبب ... ولم تتم ، بل رجت : بودى أن أذهب معكم .

فاعترض الخال :

ـ ولكن قد يحضر زوجك من السفر . لا داعى لان تسافرى انت .

أخذ الخال والضيف سبيلهما واخذت ليلى غير ذلك السبيل . ترى لو كان السفر الآن ؟ الرأس بركة محمية

والشجاب فى اتونها يحترق وبقية الآخرين على الحافة يبكون .
العينان اندلاع غضب لن يطفئة غير احتضار كلى او انتصار
الرجلان منخاذلتان ومع ذلــك نفس السير . لماذا ينهــزم
الانسان ؟ الانسان لا ينهزم . لكن اين تقابل انسانا او امة
لا تنهزم . وتسير ... الصور والجدران كأخيلة باهتة لا
تتقعر فى النظر . جبهتها تضرب كمطرقة ايجابية الحركة .
الاخيلة تزداد ضبابية وأم الرأس تشتعل ومراجل تغلى فيها
بسعر . المطرقة تضرب تضرب والكيان يتداعى وكل شيء
يتوقف . ماذا هناك ؟ ...

✪ ✪ ✪

الزمن لا ينتفى الا فى غيبوبة او رفض او فرح او آلم .
ارتعشت العينان ثم اغمضتا فغاب الزمن ولم يعد الا عنــد
أذنيها حيث كان صوت يتمزق :

ــ ابنتى ؟

واعقبه آخر ينتحب :

ــ هل استيقظت ؟

وانتبهت العينان للحظة ، فانطبع فيهما الاب والام
وآخــرون .

ــ يجب ان تتركوها .

فارتفع دمع . كانت تبكى وتردد : لقد قلت لنا : يجب
أن تراقبوها . واضاف الاب ساخطا : لعنة الله على يوم
ادخلتها فيه المدرسة لتتعذب .

ثم انتفى الزمن من جديد ...

واستمرت الايام ترحل . وفى آخر حصة منها علمت :

ـ بعناية من الله لم ينفجر فى رأسك شريان . كنت بين الحياة والموت ..

فى اعصابها وهن ، وفى فهمها تخدير ، وفى كيانها ضعف كبير . كان شىء ما قد مات . ما هو ؟ لم يعد لها ما تقاوم به ، فهى فى انهيار . التجربة مرت كما هى : ان تكون فى الجسد مغالبة فيقاوم ويقاوم الى الرعشة الاخيرة قبل أن يسقط . رعشة الاحتضار دامت أشهرا وكان البدن فى العراك : فهو صلب فى حدود .

أما الآن فلا شىء يتحدث عن شى . همود فى همود . والعيون الرحيمة تحيط بها : لقد ربحناها . هكذا كان الاب يردد وفى صوته زهو وانتصار ، فهو يحبها لانه أب يمتاز بأنه يحب أبناءه بمبالغة ، لا يهمه ان يكونوا فى مستوى ذاك الحب او دونه ، ولكنه لا يتوقف عن البذل ، لان الابوة فى نظره عطاء ، وهو يعطى . حمل جهاز الهاتف بيده واقبل :

ـ أ أنت بخير اكثر . هناك من يسأل عنك . لا يريد أن يقول من هو ؟ أتريدين أن تجيبيه ؟

ـ آلو ؟

ـ أنت الآنسة ليلى ؟ .. انا نائب السيد الكبير ، كيف الحال ؟

ـ اهلا وسهلا .

ـ ما هذا الغياب . لقد انتظرناك ...

فأفصحت وهي تقاطعه :

ـ كنت مريضة

كانت بلهجتها تلك ، كأنها تؤدي اعترافا لا بد منه ..

ـ سلامتك .. وهل انت الآن بخير ؟

ـ الحمد لله

ـ نحن نريد ان نراك . والسيد الكبير ايضا : لا باس أن تأخذي رقم هاتفه وهاتفي : 216،12 وأنا : 414،60

وصمت . ثم لم يستمر في الصمت :

ـ عائشة تسلم عليك ، وتريد لو تلتقين واياها ببعض الزائرين ، أيمكن ؟

ـ الآن ، لا ، ارجوك

ـ طيب اننا في انتظارك . واتصلي بنـا في احد الرقمين ولا بد .

ـ شكرا .

وضعت الجهاز ووضع العقرب الصغير نفسه على رقم . فرسم التاسعة ليلا . وعلق ابوها :

ـ الراحة الآن . يجب أن تستريحي رأفة بأمك وبي .

كان قد ابطل اسفاره منذ مرضت فهو لا يشتغل . وكان ذلك دأبه ، حتى انهم طالما لاحظوا عليه : انك تعامل أبناءك وبناتك كأم .

التحق الزمن ببعضه واستمر يرحل ولا يتوقف . وكانت أمها كالعادة تقف من موضوع ما موقف الحامي . قالت تخاطب

زوجها ليتخذ موقفا غير طيبوبته :

ـ لو كانت ذات مشاغل بيتية لما اهتمت بالموضوع الى حد انه كاد ان يدمرها ان محبتك لها تفسدها . يجب ان نلح عليها فى مصلحتها .

ـ ولكن ليلى ابنة لينة ، فلماذا نقسو الآن عليها ، أتريدين أن تقتليها .

غضبت الام كأغلب عادتها :

ـ أقتلها ؟ .. يجب أن نتعاون لئلا نظل تقتل نفسها ..

فدخل الموضوع :

ـ اذا كان رجلا صالحا كما يقال وكما تعتقدين ، فهى ستعرف ذلك وتعرف بما ذا تجيب

ـ ولكنها كل هاته المدة وهى لا تتكلم . مرة منذ شهور ، وكانت فى الالم ، قالت ما يفهم منه انه نعم .

ـ والآن ما ذا تقول ؟

فقطبت فى وجهه :

ـ اسألها بنفسك .

فأهمل التقطيب ، وعلق :

ـ اننى لن أسألها فلها أمرها . وهل تدخلت مرة فى أمر ابنائى ! اننى أثق فيهم . ثم لا تنسى انها قد قالت لا ، قبل أن تقول ما تزعمين أنه نعم .

فارادت ان توجهه ليتخذ رايها :

ـ لكن اسمع . ان هذا غير من تقدم لأختها ، فهو وجيه

وصاحب مكانة ، سوف يضعها فيما تستحق ، بل وسوف يجعلها تستريح حتى من العمل .

فاعترض الوالد بلا ضجة :

ـ لا ، اننى أخالفك . فلم تعمل ابنتى لانها فى حاجة الى العمل ، ولكن لأن مثيلاتها يجب أن يعملن ، فكون ذلك السيد يغنيها عن العمل : ذلك ما لا أراه ولا أوافق عليه .

ـ ولكن هل تظن أنه يرضى العمل لزوجته ! . انه يريدها وجها براقا فى كل المجتمعات فكيف يفعل بها ذلك وهى تتلف نفسها فى العمل .

ـ انها لا تتلف نفسها ، ولكنها تدعمها .

ـ ما معنى هذا ؟! زوجة انسان مثله تعمل .. غريب !! ان العمل لغير طبقته . اما هو ، فقد هيأ لها كل شىء .. كل الكماليات .

ـ الكماليات ! .

ثم تابع :

ـ اسمعى ، لو كان بالسمات التى اسمعها من البعض عنه ، لكان رأيه غير رأيك . فالعمل سيكون عنده جهدا وعطاء ومساهمة . أما لو ...

فبترت الامر :

ـ أحيانا لا نتفاهم .. اسمع .. لقد قال انه يريدها فى مستوى رجل مثله .. فى المظهر والتانق والكماليات . وهو يمنح كل ذلك مقدما .

فغضب : ليت الأمر توقف عند هذا ، ان ابنتى أهم

فوضعت يدها على ظهر كفه وزفرت برجاء : أوف ! كم أنت عنيد .

فتراجع :

ـ لماذا هذا النقاش ، انه لا يجدى . اتركى لها الامر وسوف تقرر .

فاحتجت :

ـ ولكنها مترددة ، زيادة على أنها .. نصف مجنونة . فهى تدع أمورها وتتعلق بأمور الآخرين . آه ، كم عذبتنى !.

امتقعت نظرة الاب وتكلم بصرامة :

ـ كم مرة قلت لك تكلمى عن ابنائك بلباقة . ان ذلك يجرحنى .

ثم غضب :

ـ ان لها امرها .

فصاحت على غضبه :

ـ بل يجب أن تتزوجه .

فاستدار نصف استدارة واستفهم بادانة :

ـ اتريدين ان تقتليها .

ـ هى التى تريد ان تقتل نفسها .

كان الصياح قد بلغ ليلى وكانت تعلم الى اى حد قد تعنف امها فى بعض المرات ، ولكن لم تدر أن أمها ستعنف هذه المرة ، الى هذا الحد ، من أجل آخر .

وظهرت الام وهى لا تزال تصيح :

ـ بل أنت الذى تريد ان تقتلنى . انك بهذا الطبع تفسد أبناءك ، تضيع مصالحهم وتهملها وأنا ادرى بما يجب ، يجب أن تتزوجه .

فرفع كتفا دون اخرى وهمهم بلا اهتمام :

ـ قولى يجب !

فاحتدت : أنت تستهزىء بى . انك وحش . ان ابنتى تفهم ما أقصده ، وهى عاقلة ، ولا بد أن تتصرف كما أريد ،

ـ لا داعى لهذا الغليان .

قال هذا وهو يصب كأسا من الماء ويشربه .

ـ لا يهمك . مصلحة ابنتى فوق كل شىء ، وهى الآن بخير ، ولهذا يجب أن تجيب .

كانت ليلى تسمع و لاتدرى . ان طبعها من طبع ابيها ولم يتغير الا بسبب زلزال . أما وأن موتا قد حصل ، فانها تسمع ولا تجيب .

واجهت الام ابنتها وحاولت ان تضبط من انفعالها ، واستفهمت :

ـ أجيبى ، انه رجل ، ولقد طال انتظاره .

ولما ظلت ليلى فى الصمت ، تابعت الام :

ـ ليس فيه عيب . انه سيد الرجال ، يستطيع أن يوفر لك الكثير ، وانت تستحقينه .

فردت ليلى : ولكن لماذا هذه الخصومات يا أمى .

ـ من أجلك انت . اننى لا أريد ان تظلى تضيعين فرصك..

كان الاب واقفا في البعيد ، كانه قد انفصل عن الحديث والخصام ، وكانت ليلى تجيب :

ـ سوف أقول لك من بعد .

وماذا سأقول : فما معنى الثقافة وما معنى السعي وراء الثراء ؟ يجب ان تتضح الصلة بينهما لـــوضوح الصورة . نعم ، كانت عندي من قبل مؤطرة بحيث أستطيع أن أنشر عليها بصري وبصيرتي : ان طريقنا غير واحد ، ولكن الآن : كم يبلبل الاندحار الفهم والمواقف والأشياء !.

وانفعلت الام من جديد :

ـ وهل يحتاج الامر الى (من بعد) . اسم كاسمه ويظل معلقا !.. يالغلطتك يا ليلى ، انه وجيه ويستطيع أن يضـم اليه مئات منك .

ـ فليفعلْ .

واستدارت وتحركت وهي تخاطب اياها . فقد كان عليها ان تغير الموضوع :

ـ لم استطع أن أنهي الفصل الذي بدات مراجعته قبل يونيه . رئيسي في العمل ينتظر مني بعد هذه الشهور ، أن أدأب ء لي اتمام النسخة في أقرب وقت ، فالمركز يجب ان يقدم شيئا .

كان الاب قد رفع بصره عن صفحة الجريدة واجاب :

ـ نعم ، يجب ان تحققي رغبته ، فلقد وقف منك في هاته الشهور موقف الاب لا موقف الرئيس . ثم انه عملك .

ـ لست أدرى كيف أن همتى تنخفض وانا افتح الكتاب، ان اتصالى به يتدهور .

ـ لعلها نتائج المرض .

فدمدمت باستفهام وهى تشرب ايضا :

ـ أو شيئا آخر ؟

أخذ الاب حذاءه وعرض :

ـ أأوصلك .. ستذهبين هذا المساء ؟ . ساخرج الآن ، عندى موعد .

✪ ✪ ✪

السحاحة كما هى .. فسيحة وعريضة ، تعطى للنفس فى الظروف المفتحة سعة ومنظرا ، حيث لا يحيط بها البناء من كل الجوانب . وانما يحتضنها ويتركها تتطاول بنفسها الى المدى حيث لا يحجزها عنه غير صف الاشجار القصيرة التى تشد الساحة من الجانب الغربى . وفى الطابق الرابع ، حيث يوجد المكتب الذى تشتغل فيه ، ينتفى حاجز الاشجار ، وتصبح الساحة والمدى مظهرا واحدا لتحطيم الحواجز والحدود. وحينما كانت تنتصب على الشرفة .. كان شىء ما فيها يتنفس .. فليس من المدينة والبنيان اى شىء .. ان كل ذلك بجانبها ، أما الضاحية والشساعة ، فهما فى تلك اللحظة ، أمامها .

امتطت الدرج الاربعين بالتعب الجديد ، وولجت المكتب وسارت رأسا الى المقعد . كانت عتمة خفيفة تسيطر على

المكان . كان النوافذ الموجودة لم تعد تكفي . بمهل فتحت احداها ورنت من جديد دون ان ترى . كان المكتب هو الكتاب والكتاب هو هذا الاطار . مدت يدها وتناولت اوراق العمل ، فتحت بعضها وأعادت قراءتها وحركت القلم حركات نشيطة وردت على تحية سكرتيرة الرئيس وأعادت القراءة من جديد ، ثم رفعت رأسها وتنفست بشكل كالشهيق ولم تستطع ان تظفر بأى تركيز . القاعة هى القاعة والنوافذ ليست مفتوحة كلها وهذه الحروف لماذا لا تقول شيئا ! . قامت وفتحت كل النوافذ ونادت الحارس وطلبت ماء . الجوف يشرب وما بال الدماغ لا يشرب الآن ، وهاته العتمة أين تراها هى ؟ . وضعت ذقنها فى كفها الايسر وغرست بصرها فى فتحة النافذة أمامها وذهبت فى سرحة غير مفكرة . ثم عادت الى الجلسة وتركتها الى النافذة وانكبت .. فالساحة لم تكن أبدا غير باسمة او مغسولة بالمطر . لكن تلكم الساحة أين هى الآن ؟ العتمة فى المكتب والساحة والاعماق والمدى . واستبدارت بلا هدوء نحو اركان المكتب والى وقفتها وذهلت : أنا هنا ؟ أهنا يجب أن أكون ؟ .

مسحت جبهتها واخذت مقعدا آخر وجلست حيث وضعت رجليها فى شكل تمدد : لا لا ، على الا أضيع بين هاته الجدران الضيقة . وأخذت الاوراق ...

وفى العودة فكرت ان ترى المدينة . ان الاحياء المأهولة تعطى للآذان أصواتا وتمنح أصداؤها للعتمة ضياء . ومن اجل

ذلك ركبت الحافلة .. ثم مشت على أرجلها ، ولم تصل الا متأخرة .

كانت تلك حالة قد عرفتها للمرة الثانية ، وبشكل اقوى . وفسرتها لنفسها حينما انفتحت على الشوارع والناس، بأنها مجرد أثر للظروف والحدث ، وقد يمكن ان تمر .

ولكن الايام لم تكن لتهادن الحالة او تفنيها ، فهى ما ان تاخذ سبيلها فى بدء خط السير نحو المكتب المرمى فى ضاحية المدينة حتى تجد الحالة فـي انتظارهـا .. تسبقها للطريق والدرب والمكتب والاوراق .. وضاق صمودها الجديد بالوضع الجديد . ولكنها كانت تغالبه .. باللين حينا وبالمقاومة حينا آخر . لكن اليوم .. فشلت جهودها بين النوافذ والتمشى فى الساحة ، والانكباب على الفسحة فى المدى . كان فيها ما تفر منه . فسبب من أسباب ارتباطها بما تنجزه كان قد انقطع . فالكتاب أمامها كمشروع ، ولكن اين هى التى يجب أن تنجزه ؟ . ليس فى مثل هذا الامر ما هو واجب ..

وكيف العمل ؟...

طوت الصفحات وراودت نفسها : الى وقت آخر . غير انها لم تستطع أن تلاين ما ينتظر . فلربما لم تكن قد خلقت بالاصالة لمثل هذا . لكن أين مكانها ؟ . المكتب نقطة مرمية فى غير موضع لا تخاطب أحدا ولا تتصل به . وذلك المشروع جزء من هذا الكل . والكلمة المنجزة هنا هى النتيجة . وانا الوسيلة وليست العتمة غير شارة توضيح . وأين الآخرون ؟. حملقت

فى فراغ الساحة بشراهة : حتى هنا ليس من أحد .. حتى القريبون ليسعوا هنا .. وانما لوحدى أتعامل مع الفراغ لأعود لهم بما لا يرفع واقعا .. لا ، لا .. يجب أن أعود ، فلربما أبحث عن مكانى .

وانكبت من فتحة الباب وخاطبت السكرتيرة : من فضلك أخبرى الرئيس بأننى قد ذهبت .

وكانت تسترع .. الدرج شريط سيوصل لشىء .. والساحة فوهة مفتوحة على لا شىء .. وهذا المكان ليس مكانى. تنفست وسط الشارع وسارت ..

وفى البيت كانت الكآبة . فليس هناك ما يعمل .. حيرة كبيرة غامضة بين الاشياء والوجوه ، وفى العالم كثير من الامكنة لكن كيف تستطيع أن تعثر على مكان لها . وتدخل أبوها ، رادا على سرحاتها وتفكيرها المغرق واستسلامها للبيت ، حيث اقترح :

ــ الا ترافقيننى لقضاء الجمعة والسبت والاحد عند أختك ؟ سوف أسافر .

✪ ✪ ✪

التخدير هو هو . وذلك التيه لم يعد من مشاريعها . ولكن لماذا لا ترحل . فأمها لن تكون غير مسلحة ، وهى كم تكره صراع الهوامش . وفى اعماقها أطباق تخفى أسرارا . وكم تود أن ترتاح . ان بها تدهورا ابتدأ منذ .. منذ متى ؟ والى الآن .

عرض أبوها :

ـ أتسافرين معنا ؟

ـ لا . هكذا تكلمت الام ، فرجت ليلى :

ـ ولم لا ، يا أمى !

ـ الابناء

كان الاب وكانت ليلى يعرفان ان باستطاعتها ان ترحل ، ولكنها كانت فى الغضب .

أخذت ليلى نسخة للرئيس الكبير . ولكن من اعطاهم الرقم فى تلك الليلة ؟!. ودارت العجلات .. ولا رغبة لها فى الحديث . وعيناها لا تقعان على شىء . فمن قبل ، كانت الاشياء، اى شىء مسكونا بالغيب ، وكان ذلك يدفعها فى رحلة بلا نهاية ، فعبر الشىء وما بعد الشىء تريد أن تعرف . ولكن الآن ؟ العجلات تطحن الارض والاب يدخن ليطرد بقايا النوم ، ولا شىء ..

وبغتة ، حشرج المذياع ثم انطلق فى اغنية ، ولكن الاب جعلها تكون خافتة حتى لا تكاد تنبش الصمت ، ثم أسكته نهائيا عند الاعلان عن نشرة الاخبار .

ولم يستمر الصمت فى السيطرة ، حيث تكلم الوالد سائلا :

ـ ألا تعرفين ماذا سيختار محمود ؟ . أنا اثق بنجاحه فى الشهادة الثانوية والانتقال الى القسم الرابع ، ولكنى الى الآن لا أدرى أية شعبة يفضل : ان مشاغلى كثرت هذه الايام ،

فلم أجلس اليه منذ مدة .

رمت ليلى الصمت بعيدا وأجابت :

ـ هو أدرى يا أبى

ـ نعم ، فهو يعرف ما يمكن أن يتقنه .

وجاءتها حيوية :

ـ لكن شخصيا أتمنى لو اختار الشعبة العلمية .

ولم تكتف ، بل حدث فى رأيها تراجع ، ذلك أن مفاهيم جديدة قد تبلورت فى سكون الايام المفكرة :

ـ ألا ترشده يا أبى بنفسك الى هذا ؟

فتنبه الاب :

ـ ولكنه هو يعرف .

فابتلعت ريقها قبل أن تقول بما يشبه الاستعطاف :

ـ أقصد يا أبى أن توجهه بالاخص . فمرارا سمعته يردد ، فى تلك السنة وبداية السنة هاته : اريد أن أكون مثلك يا أختى .

فابتسم الاب :

ـ وسيكون محظوظا لو استطاع .

فتنغص صوتها قليلا .

ـ لا يا أبى ، ما أمثله مر عهده عقب رجة يونيه . ان قافلتنا لن تسير بالترنيمة والكلمة ، فذلك يصلح للامم المترفة ، أو التى غسلت حاضرها وأمنت مستقبلها وامتلكت القدرة على الاندماج فى رحلة التاريخ ، أما نحن .. فأمامنا العكس ، ان

علينا أن نعرف ما يلزمنا وما يلزمك اتجاه محمود . فمحمود هو واحد ممن عليهم أن يعرفوا ما يبدأون به .

عبرت عينيه لمحة تفكير ، ورد :

ـ نحن فى حاجة لكل شىء ياليلى . لا تهملى سلاحك ، فهو قد يشق فهما أو يخطط رأيا أو يحدث اى بصيص . نعم ، حتى العلم ، بل العلم وسيلة هامة ، يجب أن تنال الاهتمام .

وقبل أن يتركها تجيب ، علق :

ـ لكن اى علم عندنا !.

فأجابت :

ـ ولو .. ان من يريد أن يتعلم شيئا ، يتعلمه ، فالعالم كبير ..

صمت قليلا ، ثم تدخل :

ـ رأى غريب ، لقد كنت من قبل ترفضين اى نقاش فى دور الكلمة ، وكنت ترددين : الكلمة فعل .

فلم تتراجع :

ـ نعم يا أبى ، لكن ذلك بالنسبة لمن يفعل ، وتكون كلمته فى مستوى فعله . أما الذين هرجوا بها على الاذهان فلن تكون فعلا ، فهى لا تأخذ ولا تعطى ، ولذا فمن يسمعها منا ؟ ان الكلمة البكماء لا يسمعها أحد ، ولذلك يبقى الفعل انه فعل وكفى .

ـ ولكن الكلمة كما كنت تقولين ، تعنى الكفاح والشروع

فى اعطاء بنائنا الفكرى طابعه ، بحيث ان أمة لا تملك كلمة حقيقية لن تلج التاريخ . هذا كلامك بالضبط !..

فوافقت الى حد :

ـ الحقيقة أن نعم .. الكلمة التى فى مستوى عصرها ، غير بعيدة ولا متخلفة . لكن قبل ذلك هناك مراحل ، فالفرد اولا ، وحينما يتهيأ ليكون الكل ، فانه يجد كلمته الخاصة به ، ليقولها على المستويين القومى والانسانى

صمت ولم يستمر . فلقد بدأ يترنم بما يشبه التذكر. ثم أفصح : أتذكرين ، لقد كنت تقرئين لى مرارا ، شعرا يمثل الكلمة الحقيقية ، واننى لا أزال أحفظ منه . ثم بدأ يترنم :

وأجمل الغناء : (I)

ما كان من قلوبكم ينبع ، من أعماق
شعوبنا الراسخة الاعراق
وأرضنا الطيبة الخضراء .
فلتلعنوا الظلام
وصانعى المأساة والآلام
ولتمسحوا الدموع
وتوقدوا الشموع
فى وحشة الطريق للانسان
يا اخوتى ، الحياة

(I) الشعر كله لعبد الوهاب البياتى .

أغنية جميلة . مطلعها الدموع والاحزان .

وأعاد : أتذكرين هذا يا ليلى ؟ مثل هاته المقاطع التى جعلتنى أحفظها ، هى الكلمة حقا

كان رأسها من رأسه ، تنطبع فيه مثل هاته العبارات . ولهذا ردت :

يا شعبى السجين

يا رافع الجبين

للشمس وهى تطرق الابواب .

وتقطع الصوت وهام النظر . ثم جاء :

نحن العراة

بالامس سخرنا الطغاة

لبناء هذه السخريات

ثم :

المجد للشهداء والاحياء من شعبى

وللمتمزقين الصامدين

فأسرع :

المجد للشعراء والكتاب ، أحباب الحياة

تابعى . لا شك تتذكرين . فقالت :

الخائضين ، اليوم ، معركة المصير ،

والضاربين يد الطغاة .

واذا يا ليلى ، ما رأيك ؟ لقد قالت الكلمة رأيها منذ البدء، فهى قد كانت معنا ولهذا أعتبر مثل هذا الشعر هو الشعر

الحقيقى .

فتلمظت ليلى رأيها ، وتنصلت من الشعر ، ثم تكلمت :

ـ الفكر العربى يا أبى لم ينتج هاته المشاركة البسيطة فى غير هذا المجال ، فالبياتى وأمثاله قالوا كلمة مشاركة ، لكن أين استجابة الفكر العربى فى بقية المجالات ، مجالات الفعل والعلم بالاخص . فمع ايمانى بأن الحرف يصنع التاريخ، الا أننى أربط ذلك بحرف القوم غير النائمين ، الذين نفضوا غبار أعصر من الركود عن أدمغتهم وحركتهم ومفاهيمهم ، وخلقوا من جديد كل ما يخصهم ، فان مثل هؤلاء .. الآتون .. من سيقفون .. هم من سيخلقون الكلمة التى تخلق العصر وتؤطره ثم تتجاوزه . أما هاته الكلمات .. هذا الشعر الرقيق المر .. فلن يكون غير بذخ فى عصر يتطلب العمل .

واستدارت نصف دورة وهى تتم : أما المثقف .. مثقف اللحظة التاريخية فى مثل عالمنا ، فقد حدده غيفارا وفرانز فانون وغيرهما .

وتساءل الاب :

ـ من ؟

ـ آخرون يا أبى ، من طوروا مفهوم الثقافة والمثقفين لئلا يظلوا متسترين بالكلمة ومبعدين عن متطلبات المعاصرة . فالثقافة فعل ، والفكر فعل ، والكلمة جهاد : ذلك لمن يريد ألا يسحقه عصره .

لم يجب الاب . ربما اقتنع وربما لم يرد أن يستمر .

فمنذ الحوادث قلع عن عادته فى أن يجلسا مع بعض ليتحدثا ، ولعله الآن قد بالغ ، لانه لا يزال يحتفظ باهتماماته الثقافية التى كانت تجعله فى السابق ، من الطلبة النابهين . لكنه الآن لا يفتح نقاشا حتى يعود فيغلقه .

ظلت السيارة تسير .. والعالم يسير .. والكلمة لا تسير .. وبقعة من العالم قد مات فيها الزمن .. وهى تريد ان تعرف كيف تنجو ؟. لكن أصحيح أن هناك ما هو صادق . الصدق يعرف من حالته وعرضه . والمثقف من التصق بالفعل والارض وبعد النظر . والطلب ؟ آه ، نعم ، طلب الآخر الذى قدم ألقابه وممتلكاته كثمن ، لانها فى نظرته ذات رواء . والبقية ؟ أتراه قد رآها . وكيف السبيل ؟؟.

صاحت الفرامل وفرعجل الى المنحدر ، ان آباها فى شرود . ومن عادته ألا يشرد. لكن من يستطيع ألا يشرد الآن.

.. وعند الباب الكبير رجت اباها :

ـ قليلا ؟ . سأعطيه النسخة يا أبى .

وسارت بلا صحو .

ـ السيدة عائشة هنا من فضلك !؟

فرد الحارس :

ـ لا ، ولكن كاتبتها هناك .

واستدارت :

ـ وهل حضر السيد الكبير ؟

ـ لا

ـ طيب ، أريد رؤية كاتبته ،
وقالت الكاتبة تنبه :
ـ هنا نائبه .
ـ رجاء ، قولى له الآنسة ليلى .
الوجه المبتسم وراء المكتب ، ويده تشير :
ـ تفضلى .
ـ أعتذر .. سأتابع السفر الآن
ـ لحظة ؟.
ـ أبى ينتظرنى .
ثم تابعت :
ـ هذه نسخة ، رجاء ان تسلمها للسيد الكبير وان تسلم عليه .
ـ ولكننا نريد أن نتحدث معك .
ـ قد أمر عليكم عند أوبتى .
وبغتة ، اندلقت صورة على اللقاء الخاطف .. كانت الصورة هى مكتب السيد الكبير ، وهو قد تخطى بابا جانبيا وهتف بتمطيط :
ـ أهلا ...
وأفصح نائبه بهمس لم تسمعه كله :
ـ هذه نسخة و .... .
فأسرع
ـ تفضلى .

فهمست :

ـ سأسافر .

ـ قليلا .

وحملقت فى الباب الذى أغلق . وأين الآخر ؟ ، أبى ينتظرنى . تفضلى . ولكنى لا أستطيع أن أتحدث فى موضوع .. انها بلا صحو .

سار بلا تباطؤ ووضع ملفا على المكتب الكبير وهو يسأل:

ـ أتؤمنين بلقاء الارواح ؟

فاستفهمت وهى تجلس :

ـ ماذا ؟

ـ لقاء الارواح ، أتؤمنين به ؟

لم تفهم ، ولكن شيئا ظهر فى الصمت ، فى انتظار الجواب .

ـ أتؤمنين ؟

كان الوجه ساقطا فى الحمرة . وجلس :

ـ أن أفكر فيك هذا الصباح أيضا ، وأن تحضرى !...

مدت يده كأسا ، ورفع بصره بنظرة استفهام .

ـ فكرت فى ! لماذا ؟

رمى جرعة الدواء . وأجاب :

ـ هكذا . أترين أن لقاءنا كان عاديا فى تلك المرة ؟.

ولما لم تجب . هز رأسه وتابع :

ـ أبدا . من ذلك الوقت ، كان شىء ما قد وقع . ثم اخفى عينيه : ومنذئذ وأنا أفكر فيك . لماذا لم تزورينا ؟

كان يسأل بادانة . ولكن أين كانت وماذا كانت تسمع ؟ كل ما تلحظه يخيف . هذا الرواء الذى سيطر على النظرة والجلسة ، وذلك التأثير الذى انغرس فى الصوت فأمكنه ان يملك بعده . وذلك الانتظار ... لملمت جلستها وودت لو تستطيع ان ترفع رأسها . أيهزأ ؟ . الكبار دائما يعرفون كيف يهزأون . وهى دائما كانت تقف من الكبار موقف النقد . ولكنه الآن وذلك الآن ، غير كبير غير رئيس . فحينما أخذتها طفرة الهموم فتحت فمها بطواعية ولم تدر النتيجة : أادانة أم اى موقف من كبير لمتمردة . ولكنه كان انسانا . سمع وشجارك . لكن الآن ؟ ما له يجمع يفاعته فى نظرته ليشكو . يا رجل ؟ اجمع نظرتك وخبئها .. ان فى العالم ملايين النساء..

أخذ النظرة وغرسها فى النسخة ، فأرادت أن تهرب . ولكن يده امتدت لتضع شفتاه القيد على أناملها .

فزمجرت الاصابع وهى تنسحل مما كان يمثله : مما ليس يقهر .

أحنى رأسه دون أن ينظر الى الحروف . كل جبال المستحيل كان قادرا على أن يخترقها . وما أخرس العالم حينما يتكلم شىء . وما أفصح ذلك الشىء ولو فى ارتطام الوهلة الصاعقة . وهل حتى هو ؟..

الصمت بلا صمت وكل القاعة تتكلم . اللغة غير لغة الملفات والرسميات وهو وحده بلا صوت يقول ... ماذا يقول؟. أفهم ولا تسأل . لكن لماذا تقسعو الوقائع ؟.

ابتعدت النظرة ورحلت فى اللا شيء ، ثم عادت وانصبت عليها . ما أشد الصخب فى الصمت وما أكثر القيود فى الحرية وهل تملك ان تقف ؟ الاب ينتظر وفى الباب الكبير يسكن قلب ومن العادة أن الأبواب الكبيرة تقتل القلوب ..

كانت أصابعها لا تزال داخل كف يدها الاخرى . ان بها خوفا من القيد . حركتها قليلا وضغطت على مسند المقعد ووقفت . لكن أين الباب ؟ خطا بخطوتها وعند الحافة الجانبية للمكتب مد يده بمهل وأخذ محفظة يدها ، ووضعها قريبا منه. جمع يديه حول صدره واتكأ قريبا منها وظل واقفا وعيناه فى الاسفل .

دار بنفسها هلع لم يفجره فى صيحة غير ذاك البصر المغروس فى الارض . اليدان مقيدتان والنظرة وكل ذلك يتكلم بألف صوت وكيف تتحمل ؟. كل شيء على بعد خطوة ، لكن هل تملك الحواجز ان تموت .

ـ والآن ؟.

أين لسانها . عليها أن ترد . الالسنة أحيانا لا تنفع ومع ذلك أين هو لساني ؟ . نظرت بقلق اليه والى محفظة يدها . قد تهرب . مد يده بمحفظة اليد ولم يستقم . انتظار ، وما أتفه الحياة وما أصعبها اتجاه انتظار . أما هى فطريقها كان واضحا وكانت تعرفه ولكنه يونيه !. تحركت فاستقام . الهروب ...

ـ شكرا على الزيارة .

شكرا على الزيارة .. شكرا .. شكرا ـ على ـ ش ـ

الزيارة شكرا ..

ـ لقد تأخرت .

ـ نعم يا أبى . عفوا .

ولطمت الباب فردد الصعدى ـ شكرا ـ الزيارة .. على الزيارة .. شكرا . وذلك الآخر لا يشكر . انه يطلب . والطلب يعنى اليقين والشكر ذو رحابة والانسان من يجعل الناس أناسا وكيف لا يكون الانسان انسانا اتجاه انسان . وهل أنا انسان ؟. كنت ... كيف أتحمل !!

ـ أنشرب شيئا ؟

فردت بشرود على الاب :

ـ كما تشاء .

بودها لو عرفت هل تشرب ، ولكن كيف يقدم لها هذا الكأس فى هذا الوقت بالذات . ان ذلك اللقاء الذى ولد ما ولد كانت فيه بلا أنوثة . وحتى اليوم ، فانها ليست غير صفرة فقط ، ومع ذلك تستيقظ الحياة فى رفات المظهر والأشياء . فما أقسى الحياة ويقظتها أحيانا .

ـ يا ولد ؟.

نادى أبوها على بائع الصحف ، ولكنه تراجع ، ففى السفر ستقرأ هى الجريدة . وهو لا يريد . يجب أن تشفى من الحدث والاخبار . لكن العالم لا يريد لها ، فهو يهاجمها ويضربها بالمواضيع فى غفلة .

ـ اشربى .

ففعلت

فى السيارة وهى تسير ، وليلى تسير ، والاب يسير ..
ابتسم القمر . فارتعدت البسمة فيها ، ذلك ان شيئا ما يريد
أن يبسم لها ، هو كالقمر ، قمر الامس لا قمر اليوم ..

✪ ✪ ✪

اختها وزوجها والفرح . كانت أياما بلا حركة . أختها
كأمها ترى الحل فى نعم وذلك الخطيب سيجعلهما يملكان
معا ما يفتخران به ، فطابع الاسرة هنا هو هو . لم تحدث فيه
رجة يونيه أى مفهوم . وهى لابد أن تقرر . والقرار سيكون
فى الهدوء ، وذلك النداء ؟..

قضى الاب أشغاله ، فرجته الاخت :

– ليلى ذات مزاج لم يسترجع فرحته . وهى ذات صمت
كئيب ، فالاولى ان تبقى معنا قليلا . لعل التغيير ...

– والعمل ؟

– سأكلم رئيسها فى العمل ، وأشرح له الامر . ثم انه
يعرف ..

كانت كأنها وهى هنا هى ليست هنا . فحيرة ما قد
كبرت . والشجعان هم وحدهم من يستطيعون ان يقولوا كلمة
ما دفعة واحدة . وهى قد تعودت على اللين . ولين اليوم هو
لين الامس . لكن هل تملك القلوب أن تصمت !.

كل شىء فيها يتكلم . والمواضيع كثيرة . وقرارات لا بد
أن تخرج : ان العالم فى أرضها يتوقف وهى لابد أن تفكر

باتزان ، كأبيها ، من أجل أن تسهم فى تحريكه : وبطريقة أخرى ... تسهم فى تحريكه ! وكيف ؟.. لان شيئا فيها ينتفض ـ لعله أكبر من الحادثة ـ يرتعش مؤخرا ليبرهن عن وجوده وليؤكد لموت شهور أن حياة سنوات أمامها ، وانها بكل ما تمثله غير قابلة للفناء فى حادثة ، وان كل تلك الحادثة بكل ما سفكت من دموع وأرق ليال وخبل عقل وفراغ معتقدات ، لا يمكن أن تتطاول لجوهر الحياة فى زاوية خفية فيها لتبيدها بالتمام : فمن تلك البذرة تنطلق المقاومة ، لتزرع فى شرايينها شرارة البدء ، فتتراجع عن كل ما كانت تجهز به على أيامها لتخنقها ، من اجل أن تتوافق نهائيا مع الموت الذى هاجمتها به حادثة ، لكن هل تفهم أختها هل تفهم أمها هل يفهم هو ، هل يفهم اى أحد ؟!

✪ ✪ ✪

قالت الاخت :

ـ كيف كانت الجولة . ان البحر جميل .

ابتسمت ليلى قليلا ولم تتكلم . فأضافت الاخرى :

ـ تلفتت أمى ، قالت : انه أرسل من جديد . وهو يلح، ولا يمكن أن ينتظر اكثر . كما أنها تلح على فى معرفةالجواب، وتنتظره ايجابيا .

ولم تسكت :

ـ أنت عاقلة .. بل أكثر .. فكرى فى مصلحتك ولا تجعلى مصالحك تتأثر بأمور خارجية .

مصلحتى ! السيارة الفارهة والكلمة مشروع للكسب

والجيب المملوء وأنا دمية وأين بقية الانسان ؟! لكن الآخر .. الآخر ؟ الظل يعرض نفسه والوقت قيظ . والانسان لم يعط مايستحق ان يحيا بسببه غير قلبه . ففيه وبه تتحقق كل المقدسات: الله والمحبة والعدالة والايثار والشعور بالجمال.. فلو لم يحب الله الانسان لما طرحه ليخوض تجربة نجاته أو سقوطه . والناس لو لم يحبوه لما عبدوه . ولو لم يحب الشخص وليده لما نسلسل جنسه . ولو لم يحب الجند فكرة ما لما انتصروا لها . ولو لم يحب الناس بعضهم بعضا لما تكونت الخلية الاجتماعية . ولو لم يحب عنصرا الانسان بعضهما لما تحملا خوض غمار النفي في الوجود . وهذا العالم لو كانت له ذرة من عاطفة أكان يأكل بعضه ؟ وهل أنت يا أخت ترين هذا الرأي وتومنين بأن الحالات الفردية هي خطوة للانطلاق الى الكل .

ـ فماذا تقولين ؟

ماذا أقول ؟. سأعرف ماذا أقول ، على الاقل في موضوع واحد ، لكن كيف تقبل أمي وماذا سأقبل أنا ؟..

قطع خلوتهما صوت زوج أختها ، ابن عمها السيد احمد :

ـ مساء الخير .

كان ودودا هنيئا بثقة . كيف يكون الرجال هكذا ! قبل أختها وسلم عليها وابتسم . أحضرت الاخت مشروبا وكؤوسا . انهم لا يعطون أنفسهم غير ما يجعلهم أقوياء

عصير . لكن القوة من أجل ماذا ؟. ونكلم وهو يدير مفتاح المذياع :

ــ لقد حدث تغيير وزيرى ، سمعه الصديق ادريس فى نشرة استثنائية ، ولقد ترصدته الصحف منذ مدة . فقط ، وقعت تغييرات فى الاسماء والناصب . تكلم انجهاز وقال ما حدث ، ولكن الاخت أسرعت باقفاله ، فهى أيضا تسير فى نفس التواطؤ لئلا تعلم ليلى أى شىء : يجب أن تموت الاخبار والحدث .

وكانت هى مع الآخر : لقد أبدل لقبه ليظل السيدالكبير نفسبه . لكن متى أحب السادة الكبار ، بل متى أحبوا من غير طبقتهم !. لكن من يدرى ؟ لعل قاموسه دخلته الكلمة دون أمثاله . وكيف التأكد ؟.

الفصل غير الناجز والمكتب المعتم ولا أو نعم وتهديدات الخواء ومشروع القلب المفتوح وشىء آحر .. ا، أشياء كثيرة تطرح نفسها ولابد من موقف . الموقف ينمخض وفوقه الرمال. والامر فقط يحتاج الى اعصار ...

يا أعاصير الشرق متى بردت أنفاسك . روحى لا تستيقظ بغيرها فكيف العمل . عدة أجوبة متوقفة بلا قرار ومتى كنت لا أنجز الاشياء بسرعة وثقة ؟! ذاك رأى صورنى والآخر صوتى وأين الحقيقة ؟ أفى الصوت أم فى الرواء أم فى الصمت ؟

لكن هناك وضوح : العواطف ، وهل فى عالمنا قمر ؟ لكن كيف التأكد ؟ همهمت : ولم لا أتلفن لنائبه على الاقل ،

اهنئه .

أدارت الرقم . كان رقم بيته هو ايضا : 414.60 .

ـ الاستاذ على احمد ؟

كان هو نفسه .

ـ أنا ليلى .

ـ يا خبر !. أهلا وسهلا . أخيرا لابد أن تتكلمى . كيف انسللت تلك المرة ! نحن لابد ان نلتقى .

ـ نلتقى ؟!

ـ ألبس بيننا مشروع موقوف . وسنكون نحن أنفسنا فى التغيير الجديد ، السيد الكبير والسيدة عائشه وأنا .

ـ آه . تقصد المشروع ؟!.

ـ نعم .

ابتسمت ، ثم غيرت :

ـ هنيئا بالمنصب الجديد .

ـ شكرا . بالمناسبة ، تكلمنا عنك بالامس . الرئيس الكبير وأنا .

كانت لهجته تنتظر استفسارا ، ولكن ما الفائدة .

ستتم اللعبة لترى ما تحت الكثبان : كثبانها هى :

ـ أم انك تختارين منطقة الصمت .. كيف هذا ؟

ووجدت صمتها يقول :

ـ الفضيلة أحيانا فى الصمت .

وأعجبتها الجملة ، لا كرد ، ولكن كريح تهب على

الكثبان ، يمكن أن تولد رأيا أو أى قرار . وقال كلاما . لكنها كانت مع الصمت ومفهومه الجديد .

– .... أم لا ؟

– ماذا ؟

– انك تتخذين رأيا آخر بهذا القول ، أم لا ؟

– فاعترفت :

– الحقيقة اننى لا أدرى .

– على أى ، ستتمرين علينا ولا بد . تلفنى لنا أولا ، الاولى ان تتلفنى للرئيس الكبير . اننا لازلنا عند الموضوع .

– مع السلامة .

– الى اللقاء .

وضعت السماعة وظلت فى الوقوف . ثم تحركت .. فلا أقسى من تجمع الحيرة فى لحظة ، حينما يكون الانسان بلا أى شىء غير حياته هاته ، بلا لون لها ولا مذاق . وتساءلت: فماذا كان وتبقى لى منها ؟ من الأول لم تذق الكأس، لان العصير به لن يسكر مقدار الصحو فى الاعماق . وكل اللذاذات الدنيوية ثم تحمل أى استفهام يتقلص لينحشر فى الظل .. فالتشويش يبقى هو هو ، راعدا متدفقا عبر الشىء واللا شىء وكل علاقة تتخذ لون تخدير ، والانسان المفتح العينين كيف يسقط فى تخدير المشاريع المتداولة لتكون له غير هاته اليقظة الفاجعة على اندثار مرفا : الكلمة .. يا وهم الاوهام ؟ ويا حياة سقطت فى اللجة دون آن يمتد لها من هذا العالم الذى

خلا منك أى سبب ، فامتدت الشساعة الفارغة الرهيبة في المكان والزمان كتنين يلاحق طيفا كان يحقق أيامه في وهم ، فمات الوهم وبقيت النكبة ... ،

لكن ليس ذلك ما هنا .. انه الخاطب ؟ ثم هذا : (ومن آنذاك وأنا أفكر فيك) فوسط أنقاضى أعلن عن نفسه ، كمثل ماذا ؟ .. كمثل سند يقول لك اننى معك فى وقت، لا تكون فيه مع نفسك .. وانما فى تشتت ضائع يتلف السنوات والممتلكات وذخيرة الأيام. وفكرت : وما ضرنى لو حركت رقمه . ونفذت:

ـ 216.12 . آلوا ؟ الرئيس الكبير لو تسمح ؟

ـ أقول له من من فضلك ؟.

ـ ليلى .

ـ آلو ؟ أنت !!؟

ـ مساء الخير .

ـ ليلى ؟!..

كانت فى ندائه فرحة غامرة تذكر باليوم الاول الذى كان للانسان على الارض ، فاكتشف فيها الشساعة والخضرة والود ويقظة القلوب واندلاعها .

ـ أنت يا ليلى !!

ـ كيف الأحوال ؟

ـ كما تريدين لها أن تكون .

فابدلت : هنيئا بالتغيير الجديد .

قالت ذلك ولـم تكـن منسجمة معه . فوافق مـع

اللا انسجام :

ـ أتركينا من ذاك انه العمل .

ـ وهزها الجواب : انه العمل !. فهل يكون ذلك شيئا غامضا آخر يهمها الى حد تجهله . شردت وهلة . ثم سمعته .

ـ ليلى ؟ أين أنت ؟

ـ في غير مدينتك ومدينتي .

ـ ولماذا لا نكون في مدينتك أو مدينتي .

كيف دارم على الكلام !..

ـ فكري . ليس من العدل أن يعذب الانسان انسانا . كل شيء واضح ، والخطوات الاخيرة لا تحتاج لغير ...

ولم تدر كيف قالت : لغير ماذا ؟

ـ لغير نعم .

نعم !! نفس القضية . ان نعم هذه مشكلة كبيرة . ومع ذلك استمر :

ـ اجيبي ليلى ؟

كانت كأنها تراه ، ففي استفهامه بحة تعطي حالته . نفس الجلسة ونفس الغيبوبة ونفس الرؤية اللا مستقرة .

ـ لا أستطيع .

ـ لماذا ؟

تحرك صوته أكثر .

ـ لماذا .. أهناك من أحد ؟

انه يسأل . فما العمل . كالعادة ستصرح :

ـ نعم . ولكنك قد تعينننى على التغدب على الامر لاستخلاص جواب .

ـ لمن ؟.. الجواب لمن ؟

ـ له .

ـ له !! كيف ؟؟ أجيبى ..

ـ لا أدرى .

لقد قالت أكثر مما ينبغى . ولكنه يواصل :

ـ كيف لا تدرين .. افصحى ارجوك .

وبعد صمت ، أوضحت :

ـ لا أعرف الا اننى أراه يمثل سطوا . رجلا يسطو ، يقدم اغراءاته وهو مقتنع بأنتصار ه ذلك لأن ذهنيته ، ولو أنه يمثل نوعا من المثقفين ، تقف عند بعض المظاهر ، كحقائق اجتماعية ، لابد أن تحقق له غلبته على الجميع .

صمت هو هاته المرة ، ثم لم يستمر :

ـ كيف ؟

ـ هكذا . القضية أكثر وضوحا عندى الآن .

ـ وكيف ستتصرفين ؟

ـ يا سيدى ، سأقول له ان النصر يعنى شيئا آخر .

وتغيرت لهجته :

ـ بل يا سيدتى ، كيف أفهم وسائل النصر فى قاموسك

ـ أجهلها . مفاهيمى كلها مختلطة ، ولست الآن بشىء .

ـ أرجوك ، لا نعود الى الموضوع .

ولم تفهم من أول وهلة . كان يتشبث بموضوع واحد .

وهى الآن تفهم ، ومع الفهم حدث ألم . وكانت تقول :

ــ طيب . مع السلامة اذا .

ــ لكن سوف تمرين على . اتصلى بى تليفونيا . وسوف تقولين لى جوابا .. ايه .. نعم . لابد . الى اللقاء .

* * *

(الصمت فضيلة) ! (وانه العمل) ! (وذلك الموضوع)!...

لكن القلب حقا فى الصدق . وليس المرد من هذا الابد غير رعشة . ثم ما هذا الهوس فى النداء ؟! فالرحابة النفسية تضيق بلطف لتولد هذا الاحتياج الخانق وهل يسمى كل ذلك هو الآخر . الآخر بنفسه هو ، صاحب النداء الفطرى المتخاوج مع انبثاق النبتة وتفتح البرعم وولادة كل شىء جديد . كل ما مضى كان فى الاسوار والابراج وكانت الاصوات تموت عند حافتها . أما الآن ، فالنداء أرعن فى همسه وتواليه واكتماله .. يا صاحب الصوت الخافت الذى يزأر ، هلا سمعت معى ما أسمع ؟ أبلغك هول عراك أتى نتيجة ظروف عشناها ولا نزال ؟.

خرجت ..

كان المساء يلتذ بنفسه ، ففيه العالم وهو فى العالم يسير . هكذا بظن ، حينما يضم كل هاته السيارات والبنايات والراجلين . لكن أين هى من هذا العالم وهدأ المساء وذلك النداء ؟!. ليس من السهل ان يعثر الانسان على قلب ، فى الوقت الذى يكون فيه يتساءل أمام الانقاض : فماذا سأفعل

بهذه الحياة ؟ حيث السلام مات معها ومع العالم . لكن ما أشد الحاح الضرورة فى عمر الانسان . انما كيف يمكن أن يتحدد التواصل .. أبالقلب أم بغيره من القلوب ؟ ، هذا مايجب ، فاين الاتجاه ؟

وبغتة تطورت الرؤية الى ضيق . لا مسافات لا أبعاد لا فهم ، فاللحظة تسقط فى الغور وكل شىء يطفح بعيدا عن الرؤية ولا يبقى غير متنفس واحد : هو ! القلب الصغير الكبير الذى يريد أن ينتصر . فيا قلب ؟ بودى لو فرشت لك مسيرة الايام والبرهات والثوانى بدفقات من الرعشات وعقدت لك على هامتها راية النصر الاخير .

وتجرعت دفقة هامة من النسيم ومع :لك فكل شىء مكبل غير ذلك النداء .. ان اللحظة هاته خاضعة له .. خاضعة للحقيقة . لكن بقية اللحظات وحتميات الحاضر وذلك الغد وظروفك ومن أنا ؟.. فدعنى أتنفس .

وقامت : من الاحسن ان تظل تسير ..

وفى غمرة السير التائه عن مقصده طل وجه احمد من زجاج النافذة ونادى :

ـ ليلى .. الى أين ؟

فافتر وجهها عن استفهام مماثل وهى تتجه صوب وقوف سيارته .

ـ تفضلى .

ومدت يدها الى مزلاج الباب ، فى حين كان زوج أختها

يضع فى يد سائل شيئا . ثم استدار وأشار :

ـ صديقى ادريس . ابنة عمى ايلى .

تبودلت التحيات . ثم عرض احمد :

ـ لست فى حاجة ملحة للعودة الآن ؟ سنتجول قليلا ؟

فوافقت . ذلك انها تريد من يسرقها من نفسها ومن الظـروف .

وعرض الصديق ادريس :

ـ ألا نشرب شيئا ؟ فبينى وبين هاته المقهى اعوام .

فأكمل احمد : أعوام الاغتراب ...

ثم عرج وتوقف عند منعطف قريب من المقهى وهو يستفهم ، موجها استفهامه لليلى : لا بأس ؟.

وأخذوا مجلسهم وتمنت لو أنهم يتكلمون .. فلا يسكت الأصوات غير الاصوات . ولكن ادريس كان يرتشف مشروبه ويرمى نظرته فى البعيد ، بينما توجه احمد ليحادثها : أرأيت لو أننا مررنا على سكينة لنأخذها معنا ؟ فهزت رأسها وصوتها ايجابا : نعم . بينما كانت نظرة ادريس ترانق حركة يد أحمد وهى تدس من جديد فى يد سائل صدقة . ورفض احمد النظرة وتدخلها ، فأفصح وهو يبتسم بمعنى :

ـ أنا على العكس منك.. القضية قضية انسانية ، فقط .

فأتى ادريس حركة مناهضة بيده ، وتكلم بلهجة معينة :

ـ لقد قلت لك .. ان مثل هذا المفهوم لا يمثل غير المنطلق المثالى الذى يبعدنا عن مباشرة الخطو الحقيقى نحو البدء .

فاعترض احمد :

ـ غريب .. أأنتقد اذا تصدقت على فقير !.

ـ نعم ، ذلك لانك وأمثالك ، تزيدون فى رتق الجروح التي لن تشفى بغير معاناة حقيقية وفهم حقيقى وعمل .

ثم أضاف باصرار :

ـ ان الصدقات جناية .

ـ جناية !

ـ جناية فى حق الذين تؤبدون ايديهم بالاسفـل . فالصدقة دفن لكل حركة أو ...

وقاطعه احمد :

ـ غريب . ثم تعجب :

ـ هذا أيضا رأى ! رأيك ! . وأبدل ، فهو لم يتعود ان يهاجم باتقان ، بينما كانت هى تقول لنفسها :

لهذا طريقه .. فالافكار عنده تطبيق .

ـ لكن قل لى ، هل من جديد ؟

فاجاب ادريس بذات اللهجة الصارمة المدبنة فى نفس الوقت :

ـ هل بدأت تهتم بالجديد ! أنا الذى يجب أن يسألك.

ثم أضاف : هل قرأت ماظهـر أخيرا فـى السوق .. بحث الاستاذ فؤاد مجيد .. لقد ظهر مؤخرا فى مجلة الرضاء ؟.

فتعجبت لهجة احمد وصوته ، واستفهم :

ـ نائب رئيس الثقافة ؟

فأتم ادريس :

ـ فى بلاد بلا مثقفين ..

ولم يهتم أحمد ، بل استدار نحو ليلى وسأل بشكل له معنى : أقرأته ؟

فدار عقلها : الثقافة ليست طبقة ، والكلمات شرف ، والوصايا من فعل القاصرين ، والمال وحده لا يشترى بعض الناس ، وبعض الاستفهامات بلا وقتها تكون مجرد تعريض . ولهذا أجابت احمد :

ـ سوف أذهب .

ألم يكن الاستاذ فؤاد مجيد هو الخطيب المنتظر من شهور .

وقال ادريس :

ـ يكفيك انفصالا .. لابد ان تتصل بالجديد وغيره .

وعرض أحمد وهو يوجه الحديث لليلى :

ـ سأوصلك .

بينما عرص به ادريس من جديد :

ـ أم انك لن تستطيع غير أن تمد يدك دون أن تمد فهمك أو جهدك !

فأزال احمد نظرته عن ليلى ، وحملق بها فى ادريس واستفهم بشكل بين الاعتراض والتأثر :

ـ أنا ؟

فأكد ادريس :

ـ وكل من على شاكلتك .

فاستفهم احمد بجدية :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ أن تتصدق بغير درهمك ، بوقتك ومشاركتك وجهودك مثلا .

فظل أحمد في السكوت ، ولكن ادريس تابع :

ـ لو تفعل وأفعل ونفعل ، لارتفعت أسباب التسول والاحتياج ، حيث تأخذ كل الافواه والعقول والابدان ما لها ، وتعطي ماعليها .

فقال أحمد بصيغة لا لون لها : أكل هذا بسببي ! ؟

ـ ولم لا . فالواحد ضروري لتكون الاعداد .

وقالت هي : سأذهب .

فقام احمد ، بينما عرض ادريس بشكل استفهام :

ـ سنلتقي ؟

فأجاب احمد وهو يقف بشكل منكر ، وقد تخللت أصابعه شعره ، ورمى بصره باستغراق وكان يلوح عليه انه قد بدأ يفقد رضاءه :

ـ نعم .

وركبا ..

في نفسها حنق وفي التفاتة ابن عمها تعريض وهي مجروحة تتأثر بالالتفاتة وكل شيء قابل لان يكون من بعضه والاشياء الحقيقية لا توجد في الابان . ادريس قال : الصدقة جناية . وقال قوله : هناك فهم . وقال الفهم انه يتحول الى حركة . وقالت الحياة : لست غير تكرار أبيد للحركة . وقالت

الحركة انها فعل وتساءل الفعل اين آنا ؟ هل فى الثقافة بلا مثقفين او المثقفين بلا ثقافة أم فى القلوب ؟ . الجديون ولو بالحبر قرروا : الفعل فعل وكفى . فياقلب اسمع ، فمـا بعـد العذاب والالتفاتة والنداء والهوس اللذيذ يبقى شىء .. ماهو ما هو ؟ ..

وبصوته ونظرته اللذين لم يفقدهما أبدا ، سأل :

ــ أنمر على الشارع الرئيسى ؟

ــ كما تريد .

.. نعم ما هو ؟؟ . فالآخر قد عرفت ما ستجيبه به . لكن موضوعها لا يمكن أن تتخلص منه . فأناس آخرون لازالوا هناك يموتون . وبعد البكاء يجب أن تكون حركة . وهل للرعشات من دوام ؟ وبركة القمر كيف ستتجاوب معها بطريقة ما . وقضية الكتاب الذى يجب أن ينتهى كما يطلب رئيسها . وكم من الكتب أنهاها المركز بلا أهمية . والانسان العربى قبل يونيه هو نفسه من بعده . ونفس القواعد التى انبنت عليها شخصيتنا لم تتغير. وكثيرا منا اعترض يونيه حياته أياما فقط . وهوامش الايام تطغى على جوهر الافراد . لكن ما هو واجب الوعى القليل المتوفر فى هذا الجنس ؟ . واذا هل الكلمة فعل؟ لا والف . ان الفعل فعل وكفى ... واذا فذلك الكتاب قد لا تنجزه أبدا . والقلب المفتوح الا يكون لا يحب غير نفسه (أرجوك ، لا نعود الى الموضوع) فكيف لا يسعها القلب ومعها موضوع . فالموضوع هى وهى الموضوع . اما هو . فمن يكون ؟

الرئيس الكبير الذى يسير فى تيار آخر ، لكنه يملك قلبا .
انما أين القلوب التى تنفتح لما هو أعظم .. لما هو أكبر من امرأة .

كانت فى الغرفة التى تقيم بها فى بيت أختها تدور :

لا شىء واضح : نداء قلب يتفتح فى أتدس حالةللانسان، ومع ذلك فما يريد اذا ومن يريد ؟.

أنثى ! آراء ! صخب ضاج يوقد الشرارة فى الاستمرار اليومى والمسؤولية !..لكن كيف يمكن أن تعمل هى ؟ لو مثلت له دور المرأة المحبوبة فستتأطر : سيارة ، مكانة ، جيب وقلب. وأين شباب بركة القمر ؟! أسيدفنهم اللقب والمكانة والعواطف لتكون نفس الذى بكى : (حى على الجهاد) رفى البعد مجلس هارون الرشيد بالتمام ..

النار فى الاعماق ومع ذلك يجب أن تختار ...

انتفضت الحرارة فى أوصالها ، فهرعت وأزاحت الستار وانكبت وراء الحاجز فى الشرفة تغتسل بالبرودة . ومع ذلك ، فقد كانت الضجة فى كل جزء من الذات وفى الظاهر الصمت وتساءلت بلا تفكير :

أين وسبلتى .. تلكم الثرثرة التى ملأت آذانا وصفحات لاقول بها : من يستطيع منكم أن يرفض قلبا ! قلب نفسه فى قلب الآخر ، لينتسب لجيل بركة القمر .. قمر !! . وكان هناك متجمدا فى السماء . فياللشكل ويا للتسمية ! ألا يدرى ؟ فمن زمان ، مات من عالمنا القمر والنغم ، وبقى الشبح والتهريج .

لكن العجب ، هو من أمة تواصل الايام ، وفمرها بركة تقتل ، حياتها موت والالهام موت والكلمة موت وكيف البدء ؟.

طرقت الاخت الباب ونادت :

ـ ليلى ؟

* * *

الشوارع مثقلة بنفس الخطى ولكن هذه الخطى الى أين تسير .. أفى بواصلها ما هو جديد ؟. بائع النعناع هذا يبيع نعناعه وذلك الذى بدربنا رايته مرة يبكى والآن هو يبيع . رجالنا يبكون هنا ويبكون هناك وكفى . هذا يشتغل بنعناعه والآخر بمظهره وذلك بنظرته وآخر بقلبه ومن يشتغل بمحوك يا هزيمة . الهزيمة فى النعناع وعجلات السيارات والمعروضات والحركة وأين الانسان ؟

فى كل جولة تبحث عنه أو عن نقطة . شىء ما لابد أن يحدث . هذا الجريان نفسه للايام كم يثير من هزيمة . يجب أن يتغير شىء . طريقة التفكير مثلا ؟. لكن القطيع وراءه الخبز. وكم قالوا ، الشعب خميرة . ولكن الشعوب بلا خبز ماذا تعنى ؟! . مع ذلك أدينها أدين بائع النعناع فى هاته المدينة ومدينتى وكل مدينة ، والا فسيظل يبيع النعناع ، والى الابد..

* * *

كانت سكينة فى المطبخ وهى لا تصمت . فرحتها بايامها تطفح على الاوانى والجدران فتزداد نصاعة . فهى ترهن الايام المقبلة لاختيار يهمها . ونادت من المطبخ :

ـ ليلى ، تعالى قربى . يكفيك تمددا ونفكيرا . تحركى

يا عزيزتى .

قامت ليلى من تمددها ، كانت تستريح من جولة البحث فى المدينة . فقد عاودها التيه ، لكن بهوادة ، لان هذه المرة يرتكز على شىء . هو فيها ولكنها كيف تلتقى به . تلتجىء الى الصمت العفوى لعل السر يطلع .

وها هى تنتظر .

ـ أتشربين شيئا ؟

فاعتذرت :

ـ شكرا .

ـ شهيتك ياحفيظ ، لا يوقظها شىء ، أنت ضعيفة فيجب أن تأكلى ولو بلا رغبة .

كانت اللهجة فرحة والسحنة فرحة لكن أين الفرح ، ذلك الذى تستمد منه أختها كل هذا الزاد ؟ فرحة المطبخ والبطن والحدود الضيقة فى متاع بيت بعينه شىء مريع . حملقت فى فرحة أختها ولم تتكلم ، فهى تطفو على الاشياء والفرحة والمواضيع والانتساب : شىء ما عميق عميق ، ما هو وأين هو ، يشدها ، ولا خلاص : لعله قدرها .

رمت سكينة نظرة اطمئنان على طبق اكتمل تهييئه ، وتلمظت قليلا ، وكان فى نظرتها ما تزيده :

ـ ليلى . أبى تلفن هذا الصباح .

وانتظرت . وكان فى انتظار سكينة ما بعده . فانتظرت ليلى بدورها .

ـ يتعجب لماذا لم تكلميهم أبدا .

ولم تكن الجملة نهائية ، ففها ايضا ماينتظر . ..

دارت سكينة ولم تتم دورتها ، ثم توقفت وأتمت :

– يقولون ان عملك لايمكن ان ينتظرك الا مالا نهايـة . فاسبوعان انتهيا ولم تحضرى .

وأتمت الدورة ، ودخلت فى دهليز يوجد فى جانب المطبخ . فأجابت ليلى :

– أفكر أن أسافر عند عمتى بطنجة .

فأطل وجه سكينة حييا متعجبا :

– تسافرين ؟..

– المهم اننى لا أرغب فى العودة الآن ..

فازدادت سحنة سكينة التماعا . وتساءلت بهمس :

– لماذا ؟

فردت ليلى بصوت لا لون له :

– هكذا .

فظهرت سكينة كاملة من باب الدهليز ، وانطلق صوتها بلا همس ، وبه كثير من التضامن :

– لا يا حبيبتى لا تسافرى . المهم أن تكلمى أبى فى أنك تستريحين الآن هنا . وهو يتدبر الامر مع رئيسك فى العمل.

فاقترحت ليلى :

– من الاحسن ان تكلميه أنت .

– أنا ؟

– لانه سيستفسرنى عن السبب ، وأنا لا أعرف ..

فاتت الاخت حركة موافقة ، ثم صبت الزيت في الطبق وفتحت الفرن ، وضعته وأعادت الباب بمهل . وبعد قليل اتخذ وجهها حالة استبشار ، ثم استفسرت :

ـ بذمتك ياليلى ، لو كنت أنت ، أتقبلين سيارة (404) . ان احمد يريد أن يستبدل بها سيارته (سيمكا) ولكننى أرفض.

ـ ترفضين ؟

هكذا أجابت أختها بينما حدثت نفسها : ذلك أن العودة تعنى اليقين . وماذا لى منه ؟ . يجب أن أتنفس فى غير الاطار الذى لم يجعل منى غير الصورة الهشة التى كنتها ، لاستطيع أن أعود . انما الآخر ؟..

ـ لان بامكانه ان يأخذ (رومبلير) . فلماذا نحرم نفسنا!

ـ تحرمون أنفسكم !

أختها لم تتزوج احمد الا لكى لا تحرم نفسها . حرمتها من اتمام دراستها ومتعتها بما يمثله احمد من سيارة ووظيف محترم .

ـ يقول : انها فوق الضرورة ، ونحن نريد لو نملك بيتا للمستقبل .

ـ نعم ، بيت المستقبل .

فابتسمت سكينة بتواطؤ مقصود :

ـ ايه يا عفريته .. تقولين هذا لان خطيبك يملك سيارة (مرسديس) .

لكنى لم أقل شيئا . ترى لو قلت لها ما يملك الآخر .

لو قلت لامى - لو قلت للاسرة : يا ستار ؟.

ولم تجب على البسمة وعلى الاثارة . فاستمرت وهى تضحك :

- انك مطمئنة . أليس كذلك ، لقد فكرت ؟

- نعم . اننى أفكر .

- أوف . تفكرين ، فالى متى ؟

- الى القريب .

فلاحظت : القريب بالنسبة لك بعيد . وابتسمت .

فأتمت ليلى :

- وكل بعيد قريب .

أصدرت زفرة محتجة وهى تقول :

- نتمنى .

ورن جرس الهاتف ، فأشارت سكينة الى ليلى والجرس، وتمنت :

- رجاء ، انظرى من ؟

تحركت وبها رغبة لئلا تفعل . فقد يكون أبوها على الخط ، ولا حجة لديها أمامه وأمام هروبها وأمام المكتب . فالحادثة زعزعت كل شىء وهل سيعود شىء ما الى الثبات .

ووصلت :

- آلو ؟

- الآنسة ليلى أبوزيد هنا ؟

كان الصوت أنثويا .

ـ من يبحث عنها ؟
ـ هناك من يطلبها .
ـ نعم .
فانضغط صدى الاتصال رمشة ، ثم طلع صوت :
ـ آلو ليلى ؟!
ـ نعم .... ايه نعم !.
كان هو ، رحبا كبيرا كجنان مفتوحة فى موسم الجفاف .
وحدث ضغط : ترى كيف يكون هذا الامر !.
ـ كيف تغيبين ! والى متى ؟! انتظرت وانتظرت ، الا تعودين ، فالتجأت الى ما انتبهت اليه من قبل ، حينما ضبطت الرقم الذى كلمتنى منه تلك المرة .
ـ أنت بارع .
ـ ليس فى كل الامور . بقى أمر ، وأوافقك ...
ـ ان أمرا واحدا لا تقاس به كل الامور . فالامور أكثر شمولا من أمر .
ـ لكن الامر . أمرا بنفسه ، يحيط بكل الامور ويطغى عليها .
كما طغى أمر على أيضا . وكما طغى على أختى أمر . وعلى أمى أمر . وعلى كبير تلك الدولة أمر . وعلى العالم الحى الذى لا نعاصره أمر : حقيقى .
ـ مالك لا تتكلمين ؟
ماذا تقول . ان قضية القلوب عسيرة . من زمان وهى لا تتكلم فيها لقداستها . فابنة الشرق هى . اندحر الشرق وترك

لها تركة غير متجانسة مع العصر . لكن لو !! فان كل الشجاعة ضرورية لمجابهة قلب : كبير كبير ، يذكر بكل الايام التى مضت والفرص التى ضاعت وذنوب القلوب التى اقترفت وامكانية التوبة التى أتيحت . وما العمل ؟

ـ ليلى ؟ كونى كما أنت ضد الظلم بانواعه .

بودها لو فدت رعشته ، بودها لو غمرت بالشرارات تشابه لحظاته ، بودها لو أنعشت بالرى كل يوم مضى له فى الهمود ، بودها لو أعطت أعطت أعطت ...

ـ أتشكين فيما أقول ؟

فتمرد صمتها :

ـ أبدا .

ـ واذا ؟

ـ سوف أقول لك كل شىء .

كانا فوق الاعتراف ، فوق الصدق ، فوق الشكليات ، فوق الالقاب : أكبر من كل شىء غير رعشة .

ـ ولم لا الآن !

ـ لا أستطيع .

ـ لا تستطيعين !

ـ حينما أستطيع ، سأقول لك كل شىء .

ـ لكن متى ؟

ـ متى ؟.. فى أقرب فرصة .

التزم عدم الرد . ثم اتى صوته فى حالة شكوى :

ـ انه حظى .. أن تكونى قوية الى هذا الحد !

ـ سامحك الله .

ولامت نفسها : هل هناك من عو ضد نفسه ! جمال الحالات ينطق والبديهة مع الاستجابة . لكن بركة القمر فى أضلعى كسعير . والتاريخ هل يتشكل بالحالات الفردية أو الجماعية وماذا أريد أن أقول ؟.

ـ أأنتظرك ؟! ، اننى أنتظر ، ليلى ؟ أوف ! ماذا أقول ؟ـ ليلى ؟ اسمعى ، اننى أنتظر .

✪ ✪ ✪

كانت رجفة قد سرت فى الاوصال . أننى أمام قلب !..

يا قلوب العالم اشهدوا

ـ ليلى ؟

يا قلوب العالم اشهدوا

ـ التليفون ؟

ـ انه لى .

ياقلوب النساء وياقلوب الرجال تعلموا وياقلوب العالم ويا قلوبا بلا عالم ويا عالم بلا قلوب .. نعم يا عالم بلا قلب ، فلو كان لك لكنت مع بركة القمر وبقى لى قلبى : أبذله ، أضحمه للنداء الفريد لاتفيأ الرعشة فالد الحياة .

هل الزمن يسير ، هل هو لا يسير ، هل تستطيع امرأة أن تكون أكبر من قلبها ؟. اهلها فى كل مكان كتبوا : المرأة عندنا بلا قضية !. لو يدرون ، أى افتعال على الحقيقة يقترفون. هناك المرأة والقلب والنار والقضية والحاجة والاختيار والخلاص؟

ايه تجربة وأى امتحان !...

كان الغذاء وكان العشاء ولم يكن النوم . أتسافر ؟ لكن ما الفائدة .. الامر هنا الامر هناك . أبوها كان يردد فى يفاعتها : ليلى شجاعة بهدوء . لكن مذ ليلى الآن ؟ هل هى تلك ، أم ان كثيرا من الاشياء تبلورت فى مواقف أخرى يجب أن تتخذ لتظهر من تكون . كل الزمن الذى مضى كان فى الفراغ، القلب الفارغ والترهب فى وسيلة : كان ذلك غيبوبة وكان العالم بقضايا الانثى فى الظل . صحيح ، ان النداءات كانت من كل جهة ، لكنها كانت تطفح تحت كـل ما كان وسيلة مستبدة بالايام : فى البدء كـانت الكلمـة . لكـن الآن (أوف ! ماذا أقول ؟! اننى أنتظر) وأنا أيضا ماذا على أن أقول . لو تدرى أى جحيم وسط الجنان . فى جنتك يقبع جدار دون النعيم دون النسيم دون الحرية .

خرجت دون أن تدرى الأخت . كانت القلوب تنبع من الأرصفة من العمارات من المدى من لا شىء وكل شىء .. القلوب تصبح قلبا واحدا والقلب لمن هو . وأصحاب قلوب أخرى يرتفعون بها . والقضية أن يعرف المرء ما يجعل من قلبه .. القلوب فوق الخطى فوق العقول فوق الرؤوس تحت الواجب .

لكن هل حتى النساء يرتفعن مرة فوق القلوب ؟

سارت ...

الثرثرة البحرية وذلك المدى المتحرك والدفء فى مكان ما وهى ساقطه فى الجلوس . دائما تهرع اليه ، الى البحر ،

فهو بلا حدود بلا قيود كانعتاق يوهم بالازل . والمرة هاته وقعت فى جلستها ولم تعثر على شىء كانت فى اللا مكان والبحر قد أصبح حركة مكررة . والتكرار بلا تطوريصبح عقما. فالبحر عقم والعالم من بعده يبتلعها فى اختبار هائل وهى من خلال ذلك عليها ان تكون من هى ؟

فمن هى اذا ؟

كم مر من الوقت ؟ . الدفء برد ، والنار برد ، والبرد برد ، والبرد فى القمر ، والبرد فى الاحتيار ، والبرد فى الوقت الذى يمر بلا طائل ، والرعدة فى الأوصال والأعماق ، وكيف يتحمل الانسان الحياة وقد تفطن الى ارتعاشه مع أن فى القرب نداء ؟!

همهم النداء قريبا من كل شىء فيها . وكيف ؟! فالنار اذا لم توقف تركت كل شىء هشيما .. وبين أضلعها كثير من الزوايا قابلة للأوار .. والشرارة اذا استقرت هل هناك من قوة ضد التيار : لكن فى ذلك البعد ذلك القرب أفئدة كبيرة فى عار القمر . وهاته الظروف ، كل جميع الاوصاع ، سمات هاته الشخصية العامة ، تستنجد . وأين الوعى والآذان والشمم ؟. النداء وأولئك وهاته الفترة وذلك الغد ؟. يجب.. يجب .. فياكل ما لا يجب ، ماذا يجب ؟؟ ...

كل شىء تسائله .. يا ناس يا بحر يا أشياء ياما أفهمه وما لا أفهمه ؟ قلب أم قلوب وغاية الانسان فى القريب أو البعيد ؟ ليجبنى أى أحد وليحدثنى عن نيران اللهب وجنانه

وكيف يجب التنصل !

هكذا كانت تتسكع فى التسكع ، وترمى الخطوات، وتبعثرها .. المدينة ضاجة والدروب تصب فى بعضها ولعل كل هؤلاء لم يكن لهم ما فقدوه . فهم راضون بالقليل الذى كان لهم ولا يزال ، بينما لا يضيع غير من أثقل حاضره بمستقبله . فباغتته رجة وضاعفت من عدم توازنه ورمت له كل شىء فى اللا شىء ..

اللا شىء .. والمدينة .. وفتنة عرض وخطره .. وارتجاج مشروع حياة.. والأزقة والشوارع .. والتلف . امتطت الحافلة الى الشارع المزدحم أكثر . وفى المحطة الثامنة نزلت . كان الشارع طويلا عريضا ، به الوجوه تشتغل فى الدكاكين وفى محطات سيارات النقل الكبيرة .. نقل الناس والبضائع . وعلى مبعدة كانت قاعة سينما مغلقة . وتمشت فى الطريق الجانبى، وظلت تسير. الطريق طويل والسير فيه يجد فرصته . تشعب الشارع الى فروع .. سارت فى أحد الفروع فصادفت واجهة مكتبة محلية . وقفت : لكأن عصورا طويلة فصلتنا عن بعض . هكذا قالت فى نفسها وهى تمر بمحاذاة المكتبة دون أن تلتفت. واصلت السير ، فعثرت على شارع كان ضاجا ومنارا بشمس أشد سطوعا . فتوقفت ، كأنها من أهل المغاور الذين يبلبلهم النور ، وتساءلت :

أين أنا ؟. ثم عادت الى المسير ، ولكنها انتبهت : شاب كسيح بيده قلم . تسمرت نظرتها بزحفه وكأنها فى ذهول .

بقى يزحف حتى وصل الى مقعد وطاوولة قصيرين باليين ، ثم سوى جلسته على قدر استطاعته وخطط بالقلم خطوطا للتجربة . ان القلم جديد صالح للاستعمال . ولما اطمأن ، وضعه ورمى نظرته فى كل اتجاه كأنه يجمع كل تلك الاتجاهات بتكلم النظرة لتكون معه ويكون معها . واكتسى وجهه ملامح رضاء ، ففعلت مثله ورمت النظرة فى البعيد والقريب لترى ما يرى . كان الشارع الذى تقبع فيه جلسته طويلا يتفرع الى فروع ثانوية فى شرقه وجنوبه . تقطعه سيارات كثيرة ، وفى الشارع الثانوى الذى بشرقه مقهى شعبية يتصايح مذياعه فوق ضجيج الحركة ليمنح زبناءه فرصة الزيارة . وعادت اليه : كانت امرأة ما قد جلست اليه وكأن قلمه يعمل . ماذا تراه يكتب ؟. وأجاب من داخلها صوت : ما دخلك فيه ، انه يعمل ما يستطيع ان يعمله . ولكنها لم تستسلم ، ففى تلك الجلسة ، لذلك الانسان نفسه ، فى هذا الشارع وهذا الضجيج ، شىء ما يتحدث بشىء . وأعياها الوقوف بعد السير ، ولكنها تحاملت، ورأت يده تضع ورقة فى غلاف رسالة وتغلقها وتقدمها للمرأة. آنذاك كانت سيارة اسعاف تمر وتطلق زعيقا حادا ، فالتفت ، اما هى فكانت ترتقب ، وبعد حين جلس اليه رجل وأخذا يتحادثان . انه مقبل على الحديث كأنه يخطط مشروعا لان لا شىء ضائع منه ، والآخر يبإذله نفس الاهتمام ، أما هى ، فقد تحركت بالتعب ، وسارت الى المقهى وأخذت مقعدا . انحطت عليها كل العيون لان مقاهى الاحياء الشعبية من حق

الرجال فحسب ، ولكنها كانت تعبة ومأخوذة بمراقبة الكسيح.
هم لم يأخذوا أعينهم المحتجة وهى لم تسترجع نظرتها المراقبة .. فمه يتحرك بطواعية ممتازة ، ولا يمر شيء فى الشارع دون أن يراه . وصل شخص ثالث ، فسكت الثانى وكان الكسيح يكلمه .لم يبق طويلا ثم ذهب ، فعاد الى جليسه وكانت بينهما ورقة يضعان عليها سطورا . جف حلقها فطلبت مشروبا ، ولكن شمس هذا الشارع أكثر مما تتحمل . ومع ذلك لم تتزحزح .. انما كم من الوقت مر ثم لم تعد نظرتها تلتقط شيئا . لقد شردت ...

الوقت ما هو فى حسبان الشاردين !؟ فليتقلص أو فليتمدد فلا يهم . وانتبهت : كان رأسها يتألم بالسمس والتعب وكان الكسيح غير موجود . أين هو ؟ ذهبت صوب مكانه وهى تبحث ، فعثرت على مقعده وطاولته عند حافة الدكان القريب منه ولكن هو ؟. وزعت بحثها هنا وهناك ولا أثر . أمن الملائم أن تسأل عنه .. ولكن لماذا ؟ ألا يكون الفراغ يرمى الانسان فى تصرفات خاطئة ؟ انما الآن أين وصل النهار ؟ .

وعادت من حيث أتت .. وكان عليها أن تأخذحافلتين وأن تقطع طريقا بالاقدام ، حتى اذا وصلت ، وجدت سحنة أختها متغيرة ، وصوتها يحتج :

ـ أين تأخرت ؟ الثالثة والنصف .. كنت أنا واحمد نبحث عنك . لقد خفنا عليك كثيرا .

ولكن ذلك الكسيح لماذا لا يخاف ؟.. أيكون فوق كل

ما يخيف ، حتى عاهته لم تقتله ، بل قتلها هو .. اذ أخضعها لعمل .

برق فى ذهنها هذا الرد دون أن تتقصده ، مع أنه هو نفسه ما كانت تبحث عنه من قبل ، فى الوقوف وجلسة المقهى والاهتمام بالكسيح .

ـ لم أتغذ الى الآن ، كيف أستطيع أن آكل وسائقو سيارات الاجرة يهربون أحيانا بالبنات ...

ولكن ذلك الكسيح لماذا لا يهرب من العالم ، مثلى ، فهو يعانق كل ما يحيط به من المبانى والناس والسيارات والعمل .

ـ أين كنت ؟

أما ذلك الكسيح فيعرف أين هو وأين يذهب ومتى يحضر أو يغيب . وانا كنت أبحث وما أزال ، عن المكان الذى يجب أن أكون فيه .

ـ تكلمى .

ـ ايه .. نعم

ـ أين كنت ؟

ـ فى البحر

ـ مررنا على طول الشاطىء ولم نرك

ـ فى المدينة

ـ فى أى مكان ؟!

ـ فى كل مكان وغير مكان .

– ماذا ماذا ؟

– كنت أتجول .

– تتجولين الى هذا الوقت !

– نعم ، لان الشعور بالوقت ، وتنظيمه ، يقتضى ما يجب أن يملأ به .

– ماذا تقولين ؟

– لا شىء .. لقد تعبت .

ووضعت يدا على يد ، ثم عرضت بصبر :

– تعالى لنتغذى

وفى الغذاء ، أخبرتها بأنها كلمت آباها وانه غير مرتاح لغيابها الطويل ...

✪ ✪ ✪

ليس هناك ما ستفعله هذه اللحظة غير أن تذهب .. لقد داومت على الذهاب الى مراقبته منذ أيام غير قليلة ، لان المدينة التى كانت تضيع فيها لا تقول شيئا . انها تذكر فقط ، بأن الجمود ينتصر .. المال يجمد والمدينة تجمد والحب يجمد وعهد الأنا يجب أن يموت ..

أخذت مجلسها فى المقهى ، وكان كل شىء قد علمت به : هذا الطريق يوصل الى هذا الطريق ، ومن هذه الجهة يرتبط بطريق أوبتها ، والشارع الجانبى الذى به المقهى يربط هذا الموضع بسوق الثياب الكبير ، والذى يوجد فى الجنوب تقبع فى أوله مؤسسة بريدية يكتب الكسيح لبعض قاصديها أوراقا ورسائل .

وعادت نظرتها اليه . كان يبتسم . ان أى شىء لن يقهره .. فهو يواصل الابتسام كشجاعة نادرة لا تتخاذل أمام حيرة أو انهزام .

ولم لا أذهب اليه ؟..

خطت .. ثم توقفت . انها تفضل أن تتعلم من البعد .. أن تستطلع بتصرفاته من أعماقها ما يجب ان يكون : هو لم يمت ، وكل مغلوب يجب أن يغلب غلبته .. وكيف ؟.

عادت الى الجلسة وتتبعت حركة الشارع بلا هوادة ، وفكرت فى أن اية بقعة من الارض يستطيع المرء أن يحقق فيها ذاته حضورا ومضمونا .

انما كيف يبدأ ذلك ؟...

رمقته أيضا وأخذت طريق العودة .. كانت بين أضلعها حركة ، فكأن عقدة من العقد قد ارتخت ، حتى انها عندما انتصبت عند وقفة أختها قبلتها وسألت :

ـ أين أحمد ؟

ـ سيتغذى عند صديقه ادريس .

وتنبهت ، فاستفسرت :

ـ أكان يفعل هذا ؟

فأجابت سكينة :

ـ لم يكن ، لانه كان يرى فى ادريس شابا قاسيا ومتطرفا ، ولكنه أخيرا تغير ، فأخذ يقبل عليه .

وغيرت الموضوع وهى تبتسم :

– قولي لي ، أنت بخير ؟

– شيئا ما .

وأخبرتها وهي في بسمتها :

– سأل عنك أحد في الهاتف . لم يرد أن يخبرني من هو حينما قلت له انك غير موجودة .

ابتلعت ليلى زفرة ولم تجب ، بينما واصلت سكينة :

– لا أخفي عليك ، لقد سألته هل هو الأستاذ فؤاد مجيد فقال لا ، فاستفسرته من أين يتكلم ، فقال من الرباط .

تزعزع مقدار الفرح الذي كانت ليلى قد عادت به ، ولم تدر ما تقول ، فعدوى فرحتها لازالت على وجه سكينة ، بينما لم يعد لليلى منها شيء . وأبدلت :

– أحس بالجوع .

الجوع . أي جوع منهما ؟. وتذكرته : الكسيح البطل : بيقينه والتصاقه بما يعمل وعدم انتحاره في جحيم الاحتيار ..

لكنه القلب !. بهذا تنهدت وهي تقعد الى المائدة ، حيث انكبت على تناول الطعام بشراهة كأنها في هروب .. لكن الى أين .. فالقلب أو البطولة وكفى .

وكان ذلك هو ما جعلها ترد على أختها حينما عرضت ، وقد رأتها تتجه نحو الغرفة المخصصة لها :

– هل ستخرجين ؟

– لا

– أترافقينني .. سوف أزور صديقتي زهراء .

- ابنتى متعبة ، شكرا ، أفضل ان أستريح

وتمددت .. لا ينام غير المطمئن . لم يلح ؟!. أهو الذى يريد أن يتم حبك خيوط المأساة خيطا خيطا ام قوة أخرى غيره ؟. الكسيح يقول شيئا والهاتف يقول غير ذلك القول وبركة القمر تندلع بلا توقف والنار فى تلك الحدود وبين أضلعى ، ومن أنا بين كل هذا ؟. الصبر وهل له منطقه فى مثل هذه الاحوال .. حينما يتضخم شخص فيسد كل ثغرات الفراغ ويمنح للحاضر الضال أمن السلام ، ويعرض رواءه وكل ما يمثله ، ليقول بعد ذلك منطق الحال فى الرد : وكيف يتم ذلك !

فلو ان للمرء ما يمسك به ، لاكتمل تفكيره فى قضية معينة ، وقطعها بحثا ووصل معها الى ما يستطيع وتوقف . لتكون النتيجة : قلب مفتوح وآخر خال .. فماذا يبقى ؟. لكن ليس فى العالم غير قلب : ذلك القلب بعينه ، الذى تحف به مناعات المكانة وتهديدات الرسميات وضروريات الخط والاتجاه والمواقف .. أمى تقول : كلما تقدم ثرى رفضته فهل تنتظرين خاوى الجيب ؟. فأرد عليها : الزواج مشروع حياة بأتمها ، فلابد له من دعائمه : القلب والعقل ووحدة المنطق والهدف .

وهذا ؟، معه بعض الجواب دون الآخر . فماذا سيكون؟؟ وضعت مخدة ثانية على رأسها وحاولت ان تقتل الفكر . غفوة واحدة أيها الناس ، وتكون راحة .

هناك بين الازار والمخدة كان .. بطلعته كاملة ، يعكس

بها شخصية ناضجة فى يسر ، تفرض نفسها بلا جبر او افتعال. ولكنها تتسرب عبر منافذ النفس والنظر ، كحلم عذب يكتسح الانسان قبل أن يمسك به . آه لو انه لم يكن هو .. لو كان غيره أو كان بلا قلبه لسهل الامر .. كلمة واحدة وينتهى كل شيء ، لترتمي الايام فى جولة ما لعلها تقف بها على شيء . ولكن الاشكال انه هو هو .. واقفا ، جالسا ، عارضا ، آملا ، حزينا ، ينتظر . وزادت تتذكر : صغائر اللقاء وكل الاشياء التى كان يمكن ان تمر بلا اهتمام ، لو . .

صاح نفير سيارة فى الشارع فانتفضت .. انتباه . يجب أن تقوم . هذا الموت البطيء فى التفكير يطول بها . فتحت النافذة ولم ترم النظر . الحجرة تضيق . النفس تضيق . العالم لا يرحم . والانسان لا يفهم وما اقطع القلوب .

ارتدت لباسها .. وعندما كانت تغادر البيت رن الهاتف. قد يكون هو ؟. بودها ان يكون ، ان تسمع الصوت وتنتعش بالرجاء وأن تذوب .. ولكن العالم يتكلم وطابع ماضيها يتكلم وما هى مرصودة له يلوح : فهل ليست القلوب غير ظلال مترفة والانسان فى أحضانها بلا فرصة ؟. توقفت ولم تمسك بالسماعة .. حملقت فيها بلا استقرار ثم جرت ..

كان الرنين من وراء الباب يأتى .. حرونا معطاء ودودا دامعا .. يعكس صخب الحياة فى صراعه لسلبية الصمت . وماذا تفعل ؟. لن تذهب قبل أن يصمت كل شيء حتى الرنين .. صمتها وصمته ففكاك الخطو ..

وصمت ..

لكن الآن الى أين ؟. المدينة واد غارق وحوله جبال العالم وأحداثه وهي في قعره حشرة . ونسيت الكسيح : الحياة في الموت ورفض الاستسلام .. لان الرنين في الرأس والاضلاع والمدينة والخطو والمساء .

.. لم تدر أين كانت .. لكنها كانت ، وسارت ، وضاعت ثم عادت والليل في السماء والمدينة والبيت .

ـ أريد أن أنام

ـ يجب أن تتعشى . قليلا ويحضر أحمد . لعله مع ادريس ، لقد أخذ يرافقه كثيرا .

ـ انني متعبة

ـ تعشي وحدك

ـ لا رغبة لي

في الصوت كآبة وفي العرض وفي الشبهية . لا شيء خال منها . حشرت نفسها بين الجدران ورجت النوم ..

مر من الليل كم ؟.. لا وقت هنا . الغفوة سيدة الحالات والسيد من تسرده . أما هي ، فلم تكن سيدة غفوتها ، فهو فيها ، بمرح ويعرض نفسه ووسائل انتصاره .. كان قائما بكيانه الذي يملكه ، وسط جماعة يخضعها لرأيه بوسائله . والمكان قريب من بيتها في المدينة ، وهو يباشر سلطته كسيد استوعب الطرق النفسية في امتلاك تابعيه ، ليحقق لهم بهم ما يفضله . هكذا رسمه الحلم ، وهو يحاول أن يباشر مهمته

سريعا ليبحث عنها .. ولكنها كانت تختفى عنه وتتألم فى الاختفاء ، ولا تتراجع ..

وفى محاولة للاختفاء ، سقطت المخدة عن رأسها فطار الحلم ، ففتحت عينيها وكان الليل فى عنفوانه . أما هو فلم يكن هناك.. كان مجرد طيفه عالقا بشطحات حلم . وجلست وأنارت المكان : لو أن هنا من تحكى له ، من تفتح عليه صوتها.

حركت مزلاج الباب ، وسارت فى ممر الدار وكانت تتنفس : لم يستيقظ فيها بكل هذا الالحاح !؟ ان استنتاجاتها المستخلصة من استمرارية الكسيح ، كانت لها بالامس . أما اليوم أما الآن ؟ فليس هناك غير القمر . وابتسمت بمرارة وهى تقف فى الباحة وترميه بالنظر . كان يسيطر على السماء والرحابة ، كذلك الوجه القديم الذى لم يستطع أن يتحول الا الى بركة موت . وسارت .. وفى ضوئه كانت تسير ، والليل صامت .. وفى قمر الليل كانوا يحتضرون ، فتحتضر باحتضارهم شهامة أمة وكل فعل قد ولد ما ولد . واقتربت من العلبة ثم وقفت عليها وكان كل شىء قد عاد الى ذهنها ، فامتلأت نفسها بالغضب وخاطبته : يا قمر ؟ منذ متى انطفأ بريقك فسقطت شظايا وبركا مبتوتة فى الربوع والانظمة وابقاء ما كان على ما كان .. هل منذ لم يعش الانسان لغير رنين الهاتف ورعشة النداء وفتنة القلوب ؟ أم منذ تقوقع المثقف فى الكلمة وحدها كمشاركة ، فلم يسمعها الصم بل ماتت عند آذانهم ككل مشروع ؟ منذ متى ذلك يا بركة المغالطات والجهل والفقر

وتذبذب الافكار وارتجاج الحوادث .. منذ متى يا حادث الحوادث ، يا شيئا فينا وحوالينا ، فكيف لا يستخدمك العدو ليزيدنا اغراقا بالدمار ، لان عهد الاقمار المنطفئة قد ولى وأضحى القمر مشروعا علميا يحقق الفوز فى عالم المجدين .. لكن نحن أين نحن ؟ عالمنا قمر .. فيه نحن نحتضر ، وهل يملك المحتضر ان ينتصر ؟..

الهمة والغضب وهذا النور ليس حقيقيا ، ومع ذلك فالليل لا يمكن أن يدوم . مدت يدها وقطعت رأس غصن ثم رمته وتحركت .. يجب أن تشرب شيئا . وفى الغرفة أقفلت النافذة دون ذلك القمر دون ذلك الخداع .. ولم يبق فى الشارع فى المدينة فيما بين محيط وخليج غير جحافل من الكاسحين يكذب عليهم القمر ببلاهة بسمته . لكن هل الكسيح يسير .. فى الطريق فى المعركة فى التاريخ ؟ هل يستطيع أن يزحف ليطمر الموت فى كل مكان وفى بركة القمر ؟

دب فى شرايينها شىء كالبصيص ، ثم أجابت :

نعم ، فكسيح ذلك الحى هو الذى أجاب : بحركته ، بعمله ، بتفاؤله ، باصراره على غده ، بقهر الكساح فى أوصاله..

واذا .. كيف يجب أن أتخلص من كساحى لاسهم فى انتفاضة الكاسحين ؟..

الهمة اذا ابتدأت تضخمت . والنفس التى لم تخلق للموت لابد أن تصادف الحياة .. والحزن لا يقتل غير المقتول فى الاصل . والحب ليس غير عطاء .. وذلكم الكسيح قد عرف

ما يعمل ، لنفسه ولهم . وأنا والآخرون ماذا سنعمل ؟..
وتنبهت ، فسمعت حركة الشارع ..

رمت الغطاء عن نصفها . ثم اغتسلت . فى البرد حرارة .. وكل شىء هنا يكون . أما الآن فسأهيىء لهم الفطور ..

على المائدة ، فى الشارع ، على مقعد عند حافة الشاطىء كان هدوء وكان صفاء : ففى العالم ما يمكن أن يفهم ويعمل . غرست البصر فى الموجة فرأتها وسمعتها : ان الحياة تسير وأنا متوقفة ، فأنا وصاحب القلب المفتوح بعض من ذلكم الكل النائم . سوف تظل موجة الحياة تسبقنا ونحن فى جلسة الحزن أوالتمرد الأجوف أوالاحتيار المترف أوالقلوب المحدودة .الموجة فوق كل هذا لانها تخدم حركة الاستمرار ، والانسان أكبر : فعليه أن يكون فى مستوى الحركة أو مستوى ادراكه لها أو فلينسحب .

دفعة سارت فى الطريق ... انتظرت الكسيح حتى حضر هو اليوم أكثر حماسة أو هكذا رأته ، مع أنه أكثر انسحاقا بالأرض . فلعل ذلكم القمر الخادع قد مات من دنياه قبلى وقبل كثيرين . وحتى هذا اليوم أراه بلا قمر .. غشاوة الحيرة انقشعت فلذلك أراه حقيقيا بلا افتعال أو طلاء .. هو بلا قمر، لكنه ينتظره الجميع وهو وأنا ننتظر .. وما ننتظره ، هو فينا . .والكسيح قد بدأ وأنا لماذا أنتظر ؟.

لملمت نفسها وقامت صوب مكانه .. كان مأخوذا بعمله وهو يقرأ على سيدة من صفحة الرسالة بيده :

(وهى تبلغكم السلام ، وتخبركم بأنها سوف تحصل على عمل فى معمل الثياب قريبا ، لان جهودها قد أشرفت على النجاح) قرأ هذا وأخذ يبسطه فى كلمات دارجة ليلتقى بفهم المرأة القابعة قريبا منه ، قبل أن ينتقل الى غيره . وأعاد (لان جهودها قد أشرفت على النجاح) .. كانت الكلمات فى بساطة الجلسة واللقاء والقدرة على المخاطبة والتلقى ، وسط الشارع وبين الناس : بلا مكاتب ولا أسوار أو مدى .. مثلى : حينما تخاطب كلمتى من خارج المدينة بعض الاذهان فحسب . لكنه هو : يعقد الصلة فى الزحام ، لينقل الصورة من القاعدة فتتلقاها القاعدة : المرأة الشغيلة وأهلها .

وسمعتها تقول له : (قلهم رانى بعت الفضة ديالى باش نعيش ، ولكنى لابد مشى نعود نشرها لما نبدا نخدم) فترنم بالكلمات وانحنى على الورقة بالقلم : (أخبركم أننى قد بعت حلى الفضة لكي أتعيش بثمنها ، ولكننى سوف أشتريها حينما أشتغل) .. لا شىء يضيع الى الابد ، حليها سوف تسترده وإن أنها الآن لم تعد تملكه .. فهى تتلاءين مع الظروف التى أرغمتها على بيع الحلى ، لان تتجاوزها .. لان حاضر هذه الظروف حامل

بعزم . والعزم من أجل الغد والاسترداد .. والكسيح ينقل العزم من نفس الى نفوس .. وهذا الشارع والمدينة وكل المدن هى فى حاجة الى من يوقظ فى حاضرها العزم . وأنا لماذا أوجد فى المكتب المغلق دون المدينة والمدن ، ألوك الكلمة المرهفة فى العتمة ؟

لم تعد من حيث أتت .. واصلت .. وواصلت ، فالشارع عريض .. والمدينة هي كل الشوارع .. والقطر جميع المدن .. وكل أقطارنا في حاجة الى من يرتكز في أمكنه منها ليومض العزم ويشعله .. لنبدأ ..

وصلت الى ساحة في جزء منها حديقه .. وفي الحديقة كثيرون قابعون .. في الصباح قابعون . الكسيح في عمله وهؤلاء يكادون يرحلون في غفوة . فيا قلب : أترى ؟.

لم تستدر .. ان ذلك الكسيح يعمل عمله . وبهذهالحديقة وكل حديقة تتكدس فيها النماذج البشرية الشابة يجب ان يعمل عمل . زادت الخطوات امتدادا .. في الامام اتساع والاستوار أمام الرؤية أخذت تذوب وليس للغضب السلبي من سلطة بعد على النفس .

كانت ترى .. فالشارع تسير فيه أفقيا . تمعن النظر في سوق اللحم والخضر ، ثم تتعداه الى الدكاكين الكبيرة المملوءة بمختلف السلع دون زبائن . ترى أين هي القـوة الشرائية ، وبيد من ؟!.. انعرجت يسارا لتواجه الصومعة بعد خطوات .. ان الساحة تنتظر الابتسام .. ذلك ان في حديقتها مجموعة منالغافلين الذين يطرحون سؤالا هاما ، وهو ما أهمية نسبة الشباب المتوفرة في هاته البلاد ؟؟ . التفتت صوب كل اتجاه .. ليس هناك غير الصبيان والشباب والكتب المطروحة في الواجهات والكسل . وقفت عند منتم الشارع ورمت النظر . ان هناك ما يمسك به : هذا العالم الصغير الكبير وهو في بركة الساحة يغوص . بعيدا عن الاحداث

وحقيقة العالم . لكن أنت يا قلب · انظر برك القمر وهذا الجمود ثم احكم . احكم مع اننى أعرف : ذلك أن ينتشلك من الشبكة والتبه والجفاف قلب ينبض ، ثم تفكر فى القلوب الاخرى التى تنبض فى البركة وهؤلاء فى كل مدينة جامدون .. أنا أنا يجب أن تموت وكل نبضة غير جماعية يجب أن تموت.

وبعد حين ، هامت فى لحظة شاردة واضحة ثقيلة مفعمة بالمستقبل عند رأس الشارع .. ثم عادت الرؤية ، فالتقطت بها الشارع والمدينة والجيل وذلك الغد .. وكانت تردد :

....

أيتها الاسفار !

ففى غد سيسدل الستار

ويسقط الممثلون فى الوحول تحت سقف المسرح المنهار

ثم انقلعت القدمان ، قدماها .. وكان السبيل فى الامام واضحا : البيت ـ السفر ـ الامساك نهائيا بخيوط اللحظة والغد ...

✪ ✪ ✪

احتجت سكينة :

ـ كيف تسافرين ؟!

ـ سوف أذهب .

فى الصوت عزم وفى الحركة عزم ، وكل عزم يجب أن يكون ايجابا .

ـ كلمت أمى قبل ساعة وأخبرتها بأنك لن تحضرى .

ثم أضافت :

ـ لقد سألتني عن الجواب المنتظر .

فردت ليلى بيقين :

ـ نعم

ـ نعم !! هنيئا اذا .

ثم أتت حركة نشيطة ، ضمتها بها وقبلتها، واستفسرت:

ـ وما هو ؟!

فصرحت ليلى بذات صدقها :

ـ سأخبرك به

ـ سوف تخبرينني !.. أيحتاج الامر الى وقت آخر من جديد ؟!.

ـ لا ، لن يحتاج اليه .

ـ ولم لا ، الآن ؟

ـ ليكون كل موضوع بالتفصيل .

فتعجبت سكينة : وهل هناك من مواضيع !.

ثم أضافت :

ـ أمامنا يومان آخران قبل ان ينتهي الأسبوع .. وأنت لن تدخل الى العمل الا عند بداية الأسبوع .. لا تسافري أرجوك .

ـ سأسافر .. سامحني . وربتت على يدها راجية .

الطلب والرفض ، وكل يدور في حلبته .. وأخيرا اتفقتا :

ـ بعد يومين فحسب يكون عندك كل الخبر .. صدقيني.

وألقت الاخت آخر رجاء :

ـ طيب ، ابقى على الاقل الى الغداء .. فسنيحضر اليوم

ادريس وبعض الاصدقاء ، وتتصلين بهم .

ادريس ، فأحمد ، ثم آخرون .. فرصه هامة وعرض في الموضوع .. لكنها يجب أن تشرع من الآن ، وبذلك ستلتقى بهم على غير المائدة . بهم وبكل البادئين ، بشكل ما .

واعتذرت :

ــ سامحينى . سلمى لى على احمد .

✪ ✪ ✪

العجلات تسعى على الارض باخلاص . بالصدق الآلة ، فهى تواكب دورها بلا تماطل ، واذا أين سأتوقف ؟ سأنجز هاته المواكبة فى الحين . لان الانسان ، قبل الآلة ، أصل كل تفاعل : يصنع الحياة ولا ينتصر أبدا للموت . الناس يسافرون، الناس يستقرون .. هؤلاء معى : بعضهم قد أمال النوم رأسه ، وآخرون يحملقون بغيبوبة تذكر بموضوع ، هذا الموضوع يستبقر لحظات ليغيب الشخص فى غير موضوع . وفى تلك الغيبوبة تمر اكثر من المروج كثير من الخصوبة كثير من مشروعات عمل : مهيأة مستعدة للتلقى وأين البادرة ؟. أحدهم نفض رأسه وغرس بصره فى الارض ولم يعده الاطباق . وذلك طوى جريدته وأمال رأسه ليريحه فى غفوة : ترى أليس فى الجريدة أى موضوع يوقظ !. ناس بمواضيع وآخرون بلا موضوع : لكن لا .. اننا جميعا بموضوع : الكيان المنتظر الذى علينا أن نخلقه ، والذى يبتدىء منه كل شيء .

.. معالم السكن البيضاء تلوح . الأشياء كلها فى مكانها،

ما يجب وما لا يجب . وهذا اليوم ستقضيه في مدينة الحب . وكل شيء ابتداء من الآن سيأخذ محله عمليا . سارت .. هاته المدينة قد تستقبلك مرة بغير ما تستقبلك به عادة . نعم : فهناك قلب يقبع .. أي قدر من الشجاعة تلزمك له .. لكن الاصالة دائما تنتصر .. ألم يقل أبوها : ليلى شجاعة بهدوء . الهدوء في كل مكان الا بقعة . أين هي ؟ البقعة في مكان والمكان يصبح كل الامكنة . الهدوء وعدمه ومع ذلك تشترى أوراقا . أين الشجاع بالتمام ! لا يدعي أحد قبل ان يجرب .. فالتجربة أصل الحكم .

الخطوات ضاربة الى هدفها وذلك الآخر قد تلتقي به . ليكن .. وهي تملك له شجاعته . الشجاعة شيء نسبي .. فالموقف والشجاعة وتطابقهما ذلكم هو الاختبار ونجاحه . المدينة مسربلة بحزن رقيق عريق كأنها حبلت به قبل أن توجد . من يرى الحزن منكم فهو شجاع الحزن المهفهف العظيم في الاعين بالخصوص . العيون دائما مفاتيح القلوب . والقضية الآن ، في عنفها قضية قلب وقضية قلوب ..

الاوراق في محفظة يدها كقانون سوف يصدر . ترى لو أن قانونا عاما سيصدر فيحيل المدينة وكل مدينة الى تعبئة ، فتصبح قضية العيون والقلوب قضية نسبية . وهذا ما يجب . فالشرق علم ابناءه أنها أساسية فلم ينتج غير النحيب والاطلال ويا ليل ...

يا نهار ؟.. الاوراق المنشورة ناصعة كموت سيلد الحياة . الشجاعة في الاجهاز على بقايا الاحتضار حتى لا يبدد الزمن

أكثر من أجل الشروع رأسا فى بدء الحياه .

الحياة !! وتصب فى جوفها أربعة كؤوس من القهوة ، وتشرع :

✪ ✪ ✪

19 -/-/14 .

الفاضل المحترم الاستاذ لطفى .

حسما لهذا التواصل الذى يمكن أن يتضخم ، فيتخذ شكل امكان علبنا أن نعايشه ، أعطيت لنفسى حق أن أقرر وأتكلم . فالظام أحيانا فى الصمت ، والظلم أحيانا فى الاستمرار ، والظلم دائما أقرب الى حالة الرشمات .

كانت الصدفة قدرا فتش عنى فى دروب المدينة لنتواجه لكن الآن ، كم من البسالة تلزمنى لاواجه المعطيات المغرية التى انكبت فى طفرة ، تعكس عذوبة الحياة وتناقضها فى آن ، فهى هاته المرة ، تجعل الثمن معتقدا من معتقدات الانسان .

فالمعتقد وأنت ؟! حالتان ضخمتان أنت نفسك تدرى عنهما .. ففى أتون ذلك الحزن الفظيع الدى كان ينقض على يقينياتى فى ضراوة وافلاس ، كنت أصبح في كل ظرف وكل مكان ، حتى في مكتبك !. وكان القدر سيكون رحيما لو لم تكن لطفى الانسان ، بل لطفى المسؤول الكبير ، ليظل ذلك الجدار قائما بيننا : أنا ابنة الشعب وأنت الشخصية الرسمية

لكن الهبة ارتعشت ، وكان الوقت وقت قيظ ، وهل النفوس تستطيع أن ترفض الري .

(وضعت القلم وطلبت كأسا آخر كان الشارع يغطس في غموض ما . أي شيء سيمتلىء به هذا البياض !)

الزمن ! وهل هو في صالح شيء اطلاقا !.. لقد اختار متى يطرح عرضا سخيا في لؤم . والآن ؟ : ان المسألة أكبر مما هي ، ذلك انها تضع مشروع حياة في لحظة حرجة سينبني عليها كل ما بقي من الزمن . وفي هذا الوضع الحرج المرتعد سيكون على أن أختار من أنا ؟..

لو سألتك : أية واحدة تريد نى ؟. وكان جوابك أو معنى صمتك . أنثى . لحدث حل : فهناك الكثيرات . ولو كان غيره .. لكانت بيننا نقطة نستطيع ان نقف عندها معا لنتفاهم. امرأة ذات معالم جغرافية وتاريخية ، وتلك المعالم نفسها هي التي قد رأيت لحظة من لحظات ارتعادها بسبب حدث تاريخي .

اذا ، انطلاقا من هاته المعالم التي خلقت هذا التواصل، نجد حكما منها قد صدر : أنت ومن أنت ، وهاته المعالم ، معالمي ، وما يمكن أن تستمر فيه ؟ . ان شخصا مثلك قد ارتبط عملا ومظهرا بطبقة وكيان ونهج ومواقف واختيارات ، أعليه أن يستمر في طريقه ؟ فلقد اتخذ حتى سلوكه وآراؤه نفس النهج ، لانه يعتقد ان خدماته هي على هذا النحو ، وأنه لن ينتكس بمكانته في خدمات غيرها .. لكن ، في غضون هذا الاطار ، ينتفض ماض فيه ليذكره بمن هو في الأصل ، فيرى ، شعوريا او لا شعوريا ، أن عليه أن يتضامن مع هذا الاصل . بطريقة ما : فتكون قضيتي .

هنا يظهر استنتاج ، وهو : هل تومن بالانا الى هذا الحد ؟. فلو أدخلتنى حياتك ، لاخدم الاصل فيك ومنحتنى عنه تعويضات اجتماعية لانتهى كل شىء عند هذا الشكل ، ولاصبحت ليلى خادمة للسيد الكبير بطريقة ما ، توقظ فى أيامه ورسمياتها نفحة الحياة وكفى . غير أنك تعلم ، من ليلى فى خضم هول ، عليها طابع ذلك الهول بالتمام ، ليعطى عنها أصالة الانتساب لهذا الجيل ..

(رجل يقود ابنه . بيد الابن محفظة .. والنهار يواصل مسيرته . وتلكم ، هى الحافلة ...) .

فقبل شهرين من لقائنا ، كان الدمار من العمق بحيث كنت قريبا من أن أبيع نفسى ببهرجات احتماعية ، فأضعهارهن المشترى وأجيبه : نعم ، لأكون غير من أنا اطلاقا ، وذلك لانتقم من كل المؤثرات التى خلقت منى كيانا خاصا تحطم فجأة على واقع فظ منهزم .. وكان حتى طبعى يتدخل بدوره : فلم أعرف فى حياتى ما معنى : لا .. اذ كان كل شىء يتخذ وجهته بسلاسه وكان الرفض جريمة ، لهذا سار الموضوع ولو من خلال الايام ، لا يتبلور فى حدوده الخاصة ، ولكن من خلال الموضوع الاكبر الذى يشدنى .

(المقهى غير مملوء . وذلك الجالس يرمقها . زفرت ..)

غير أنه من خلال مشروع الانتحار ، من قسوة الحدث التاريخى ، من الشد والجذب بين الحياة وموت الاشياء ، كانت الايام تسير لنقف على معنى : فالضربة انتى لا تقتلنى

تحييني .. هذا ما استشعرته ، ففي طاقة للرفض لا مثيل لها، فالعروق التى تدفقت بالحياة لا يمكن أن تستسلم للموت .. والشعب الذى لا زال يستطيع آن يبتسم لابد أن يعرف كيف يعيش .. وان الحدث الذى لم نتهيأ له لا بد أن يرتفع برفع مسبباته .. وان فى الكيانات فى السواعد فى الجباه فى الرؤوس كنوزا خاما ، ستتبنى الامر من بعد لتدخل التاريخ .. وان قضية الخبز ليست من الجذرية بحيث تظل عفيونا الى الابد .. انها بحكم ضروريتها وقسوة ظروفها ستنقلب فى صالح الوعى وصالح الحركة وحتمية البدء . وهذا ما يصادفنى: فى الشوارع فى الزوايا ، مع الركاب ، عند بائع النعناع ، فى الغفوة الغير الدائمة للقطيع الهامد موقتا . ألم تسمع : فاطمة برناوى !؟ مناضلة فلسطينية تعلن : ان الحياة فى كل مكان تتدفق ، فلن يمكن أبدا أن توقفها معركة او يرميها فى اليأس أى انتكاس . وبودى لو ارتفعت بنفسى الى مستواها، لو كسرت جزءا من الواقع المفروض، لو أسلمت دمى فى الدولاب الضخم ليتحرك ركب الايام عندنا .

هنا تأتـى أنت ، محفوفا بالنعيم والعاطفـة واللقب والشباب ، فيكون على أن أدخل عراكا آخر ضاريا ، دون أن تنفك أيامى عن السير فى مسلك يريد أن يوقفنى على معنى . ترى ؟ لو أخذت الحالة عفويتها : عواطف تحدث فيتم اللقاء ، أيكون فى مقدورى أن أحقق معنى الايام فى مشروع ؟. أبدا .. ان منطق الوضع لا يسمح ، لاننى بجانبك غيرى فى الدو،

الذى على أن أنجزه ، وذلك بسبب متطلبات الوضع الجديد والتزامه والسير فى طريقه . مع أننى أريد لمشروع حياتى كله أن يتغير : كل ما اعتقدته أو حققته ، لأن الكلمة ، الكلمة الجوفاء ، لن يكون لها دور فى التصميم والعزائم الجديدة .. فكل الأمم المغلوبة على أمرها لم تبدأ من الكلمة ، ولكنها ، وبالاخص عندما جربتها ، فضلت العمل ، شرعت فيه . وهذا ما سأحققه : فبعد تخرجى كأستاذة ، كنت مأحلة ، خلال سنتين على مباشرة العمل ، لأن هناك من أراد أن يرعى فى كلمة لم تقل ، فأحالنى على مكتب يوفر لى الوقت والتفكير ، علنى أقول الكلمة المنتظرة .. لكن ، ما الكلمة والى م الانتظار : ان العمل والصمت هما دستور القديسين ، الذين عرفوا أى مسيح يخلقونه من أنفسهم ، ليبنوا فى كل قرية ، فى كل مدينة ، فى نفس كل فرد مسيحا حديثا ، يبتدىء من العمل وينتهى اليه ، ليحقق ذاته فى نطاق الخدمات الانسانية .

(الشارع امتلأ . وفى المقهى زبائن . وتلكم السيارة تسير..)

وهذا اليوم سأراجع الامر رسميا لالتحق بمعهد الطلاب الذى عينت فيه ، لاننى وقفت على هذا الاعتقاد : ان التدريس سيمنح لشعورى بالمسؤولية نوعا من الاطمئنان . فعلى الكراسى بواكر طرية يجب انقاذها من التيه الذى يعانى منه انساننا العربى ، يجب أن يكون هناك من يساعدهم ليفتح أعينهم على من هم فى نطاق اللحظة التاريخية والدولاب اليومى وأمل المستقبل ، علنا نهز القواعد المهترئة التى انبنت عليها الشخصية

عندنا ، من أجل أن يطلع مفهوم جديد لا يلزم ان يستقيم عليه هيكل الفرد والجماعة .

انه مجهود فردى ، قد لا يحقق الغاية الكلية . لكن ما العمل ! ان هذا حتمى والا فسنظل ندفن نقطة البدء الى الابد ، حينما نيأس من الطفرة الجماعية ، وذلك لانني آومن بأن الشرارات حينما تتجمع تصبح لهيبا . وقبل التحطيم لا بد من الزعزعة ، وهاته الحركة أظنها هى . والشىء حينما نبدأه لابد أن نصله . وكل اكتمال بالبداية يكون ، وان كل عمل يؤدى اليوم سيثمر مفعوله غدا .

لكن قد تلاحظ : وما خطورة هذا بالنسبه لمشروعنا ؟ فاجيب : هناك كل الخطر .. اختيارانى وطريقك .. فكل منا قد وجد سبيله فى اتجاه : أنت ومن آنت .. وحياتى التى أريدها أن تعطينى مدلولا ذا بعد جماعى ، وهذا المدلول ذو طابع عملى هادف ، لن يكون مستساغا اطلاقا ان آنفذه وأنا مهددة بالتزامك وبالروعة والنعيم واللقب .

لقد اخترت طريق جهادى ، وذلك لان ظرفى التاريخى والنفسى يتطلب هذا الجهاد ، لأؤكد : ان مرحلة البدء حانت ، وأن من لم يبدأ عليه أن يموت .

قد يكون هذا الجهاد (وصببت الكأس السادس) ذا نتائج فى المدى البعيد ، فهو لن يرفــع الهزيمة القائمة . واذا ، فسيكون هذا الاختيار غير حاسم فى القضية الاصل ، فيجب اختيار غيره .

فكرت فى هذا ، ولم تكن غير فاطمة (I) برناوى كنموذج. لكنه البعد وشىء آخر : ان الاقدام على عمل يتطلب اليقين من القدرة على اتقانه ، ولعلى لست من هذا النوع ، فاخترت غيره، وأنا أرى كثيرا من الهزائم ، مجموعة من الاوضاع تعتبر فلسطين نتيجة لها . فمن أجلها .. ن اجل الكيانات المنحنية التى ضيعنها من أجل رفض الاستمرار المتشابه ، من أجل خلق وعى قد يحقق البدء الصحيح ، وجدت جوابى ، لاقوله للهزيمة التى أرادت أن تطحننى ، والرجل الذى حاول أن يشترينى والقلب الذى كاد آن يغمرنى والكلمة المترفة التى شلت فعاليتى . فلا .. لا .. لا ، لا لكل ذلك .. لا ، لامى ، لمجتمعها ، للاغراءات جميعا . فلن أتضاءل مع غير الفرد العربى فى كل مكان ، أجره بما تبقى فى من حرارة الى الوضوح ، لير ليسمع ليتحرك ليدخل تاريخه ، فيخلقك ويخلقنى فى نير حدودنا الفرديه ، بل فى حدود هذا الجنس الذى عليه آن يبنى نفسه ، حتى لا يعشش الشك منه فى نفوس أبنائه .

هذا آجل ، وأما العاجل فهو السلاح والتعبئة والتضامن والدم فالموت من أجل محو العار .. ولعل الدين يذرفون دموعهم ويترنمون : حى على الجهاد ، يحققون هذا الجهاد ، بالوسائل المكمة ، وبغضبة الكل التى لابد أن تثور .

هذا ما أراه ويشدنى .. فسأعانق فى اليافعين المشكلات

(I) مناظلة فلسطينية

فتطلع الفروع الحقيقية حينما تندلع نيرانهم فى التواكل والغضب المكبوت وانتظار انجازات السماء ..

من الاصل ، لعلى أحفر الجذور الخادعة ، وازرع الاصل ،

(طلبت كأسا آخر وشربت نصفه فى جرعة ..)

هذا ما يأخذنى دون ندائك .. مع أننى أسمعه من كل قرب قريب الى .. لانه يخصنى على نطاق الانا ـ ولكن ...

(أتممت بقية الكأس فى جرعة وتساءلت: ماذا أكتب ؟ أية بلبلة فى الحوار ! لكن ذلك هو أنا الآن .. وكان بعينيها بلل ..).

ولكن حينما أقول لك كل هذا ، هل أنا شجاعة ، هل أنا حزينة ، هل أنا أنانية ، هل أنا بلا عقل أم اننى فى صميم المنطق ؟. اننى خليط من كل ذلك .. فمعركة واحدة ضيعت منى الكثير ، ولكنى رغم ذلك أجاهد لان أمسك بأى خيط .. لانه ضرورى لحياتى . ومن أجله .. من أجل هذا الخيط الذى يشدنى لزمرة القلة من البادئين من هذا الجيل ، من يحاكم ومن يحتضر فى بركة القمر ومن ينتفض فى سره عزم ما ، قلت لا : لاول مرة فى حياتى ، لاتطابق مع الرفض كعمل .. كتخطيط ـ كهدف جذرى سيلتقى جميعا عنده .

(مسحت عينيها بتوتر رافض .. ورأت كل الشارع والمقهى) .

والآن هل أنا انسان ؟ وان كنت ، فالى أى حد ؟ وهل تتنافى القضية مع واجب القلوب ؟. بشىء يحير : ان فى أعماقى

لوعة ما ، لانه لا أقسى من الاجهاز على عواطف انسان . ولكن . أولئك ؟ تذكرهم ، تصور الاسباب التى انتجت قطيع المشردين الذين يلفظون النفس فى الصحارى بلا جرعة واحدة .. خذ فى اعتبارك جنسا بأتمه لم يتحرك منذ قرون ، وفكر فى أن هذا جيلا بأتمه يضيع ، وأننا مع بعض لن يسمح لى الظرف بأن أكون لهم ، لا لاننى بطلة على أن أدخل التاريخ ، ولكن لاننى امرأة ملتصقة بأمتها ، تعيش ظرفها وترفضه ، وترى واجبا أن تسهم فى رفعه .

(انطلقت نظرتها .. كان كل ما تراه يتخذ شكلا غير شكله ، فعيناها اغتسلتا وفيهما الآن وضوح ، وفى رأسها تخطيط ، وفى أعماقها تيار .. تيار)

أما أنت : فأنا أومن بأن الانسان فيك سوف يتكلم . وعقل ذلك الانسان سوف يحكم . وخطونى ستباركها فى البعد الصامت . وفى كثير من الزوايا تقبع قلوب . ومنها قد يكون لك ولى قلب بظروف ملائمة . وأى أحد لا يرضى عقله ان توسد لوحده قلبا منفردا . وكل فرد يتحدد بالجماعة . وأملى ... (هل أقولها ؟؟) وأملى أن تتعرف على الملامح الحقيقية لوجهك فى الجمع الكبير . وغدا ، سأفكر فيك لاكتسب الشجاعة وأنا أنتصر (للا) أمام أمى .. وابتداء من هذا التنفيذ سأبارك كل الذين يفهمون أو يعرفون متى يرفضون أوضاعهم أو أنفسهم أو رتابة الايام . فالحياة لا تكتسب طاقتها الا من الرفض الواعى . وفقدنا لهذا الرفض هو الذى يجعل منا قطيعا

وأنت ستكون بطلا لان قلبك لن يخلق منك عبده . والتلافى قد يتم حتى فى البعد . وقلبى تحت رأسى سآخذه لمراجعة الوزارة . وفى هاته النهاية بداية . وهذا البدء أكثر شمولا . ففيه أنت والمثقف الثرى وادريس وأحمد وشباب بركة القمر وأجيال الصغار وآخرون والكل ..

(وضعت الاوراق فى الظرف . كانت بيدها رعشة خفيفة ... هدوء . سوف أبدأ ....

الفهرس

المقدمة 7

نداء الدم.. 17

يا..يافا 25

الحرب والاعماق 37

مسيح لاينهزم 49

قتلى!!ولاموت 63

ياأمطار؟ 73

دمع ولا يقين 83

المساء الاخير.. 95

العقد يحتضر 105

الذار والاختيار 117



(تمنيت لو انني لم أنفتح على غير عالم الاعماق ، حيث كان وجودي مشروعا مشكوكا فيه..)

بهذا التمزق نبتدىء خناثة فقراتها الاولي من قصة النار والاختيار فتطل بناعلى كيانها الازلى الذىلم ينبثق بعد فى هذا العالم الذى نحياه ، تهرب بنا من الوجود المظلم الذى صنعه 5 يونيه الى مشروع وجود لم ينكشف بعد عن شكله ، ومن يدرى فربما لو عادت الحياة الي طريقها لتحول مشروع الوجود الي كيان مندفع لا كبت فيه ولا هزيمة ؟

ولكن الواقع يصرخ .

....

تلك هى قصة النار والاختيار التى أفرغت فيها الاستادة خناتة بنونة روحها وآلامها وآمالها . وهي تمثل لونا من أدب المقاومة فريدا من نوعه فى الادب العربى .

علال الفاسي

مطبعة الرسالة 11 شارع علال بن عبد الله الرباط

5 دراهم